أحمد عبد الغفور عطّار

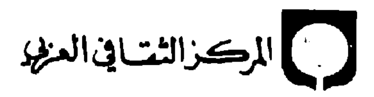
بين السِّجن والمنفى



احمد عبد الغفور عطّار
بين السّجن والمنفى

أحمد عبد الغفور عطّار

بين السِّجن والمنفى



الكتاب

بين السجن والمنفى

تأليف

أحمد عبد الغفور عطّار

الطبعة

الثانية، 2011

عدد الصفحات: 216

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9953-68-498-7

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ 307651 522

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ــ لبنان

ص.ب.: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

cca_casa_bey@yahoo.com

توطئة

لقد كُتب هذا الكتاب، كما يوضح كاتبه، في أوائل سنة 1963م، وطُبع لأول مرّة سنة 1981، ولم يُطبع مرة أخرى، مع أن مؤلف الكتاب، الأستاذ أحمد عبد الغفور عطّار (1916-1991)، قد كتب ونشر ما يقارب من سبعين كتاباً.

وها هو المركز الثقافي العربي يعيد نشر هذا الكتاب، الذي، فوق قيمته الأدبيّة، له قيمة توثيقيّة تدلّ على مرحلة من تاريخ المملكة العربية السعوديّة، هذا التاريخ الذي غالباً ما كان مثار جَدَل.

إن هذا الكتاب، ليس كتاباً في التاريخ بالطبع، بل هو أولاً قطعة أدبيّة جميلة، وهو أيضاً سيرة لمرحلة من حياة الكاتب، وقد كتبت بلغة سرديّة ممتعة تجعل القارئ مستمتعاً بالقراءة. وأيضاً، كما هو حال كل سيرة، فإنها تطلّ على تلك المرحلة من التاريخ التي عاشها الكاتب.

والمثير في هذا الكتاب هو الصورة التي يقدّمها عن أنماط التفكير على مستوى الحكم حينها، وطريقة التعامل مع المعارضين، إضافة إلى صورة الحياة وطرق التفكير والعيش.

وما يدعونا لإعادة نشر هذه السيرة المسرودة بنزعة أدبية

جميلة، هو رغبتنا في التحفيز على كتابة هذا النوع من الأدب، ليس لأنه نوع أدبي مهم، وهو كذلك، ولكن لأن هذا النوع، خاصة إذا كان صادقاً وحقيقياً، يقدم صورة وإطلالة مهمّة على الحياة في بلد كالسعودية، يعاني من كثرة التكهنات حول نمط ونوعية الحياة فيه. ولذلك تكون السيرة مسؤولية حيث يكتب الكاتب ما عاشه فعلاً، وليس ما يتخيّل أن المجتمع يعيشه، كما هو حال كثير من الروايات التي ظهرت أخيراً، والتي تصوّر المجتمع السعودي كما لو أنه مجتمعاً يعيش في داخله، حياة غير تلك التي تظهر على السّطح.

ونحن بالطبع لا نريد التقليل من قيمة هذه الروايات، وقد نشرنا بعضاً منها، إنما نريد التأكيد على أهميّة كتابة السّيرة، فالسّيرة، حتى ولو حملت مبالغات أو قراءة شخصيّة لبعض الوقائع، تبقى لها قيمة خاصّة، وأكثر مصداقية، إذ إن الكاتب يتحدّث عن نفسه وعن أشخاص حقيقيين عاش معهم، وعن أماكن حقيقية عاش فيها، وأحداث حقيقية حصلت.

في هذا الكتاب، يقدم لنا الأستاذ أحمد عبد الغفور عطّار، رحمه الله، صورة الحياة السياسيّة والاجتماعية، وطريقة إصدار وتنفيذ الأحكام، وعن حياة السّجن في فترة ليس لدينا عنها الكثير. كما يُقدم لنا صورة عن الحياة في مكّة المكرّمة، مع إطلالة على طريقة العيش في تلك المرحلة، إذ

يعتبر الأستاذ عطّار أن انتقاله من مكّة إلى الرياض بمثابة نفي له. والطريقة الشيِّقة التي كُتب بها هذا الكتاب تجعل القارئ يتغاضى عن بعض ما لا يعجبه من آراء.

إن دار المركز الثقافي العربي، التي تحرص على مكانتها عند القرّاء في المملكة العربيّة السعودية، والتي يهمّها المساهمة في إطلاق حيويّة ثقافية تسهم في حراك ثقافي نأمل أن يتنامى، تؤكد أنها في مسعاها هذا تتخذ موقفاً مهنياً محايداً تجاه الآراء أو الأشخاص أو المواقف التي ترد في أيّ من الكتب التي تنشرها. ويأتي هذا الكتاب بداية لإصدار عدد من الكتب التي شكلّت نماذج مميزة سواء على المستوى الأدبي والجمالي، أو على مستوى جرأة الكاتب في تناوله لموضوعه. ولذلك فإننا نفتح الباب لأي اقتراحات قد ترد من القراء حول كتب سبق أن نُشرت، ثم غابت ولكنها تستحق أن تبقى في التداول.

المركز الثقافي العربي



مُقَدِّمَة

بدأت تأليف هذا الكتاب في أوائل سنة 1356هـ (1936م) وأنا سجين على ذمّة التحقيق بسجن الفرن بمكة المكرّمة حرسها اللّه وزادها شرفاً وتعظيماً، ثم أتممت تأليفه في السنة نفسها وأنا لقًى بسجن الرياض الذي كان الذي يسمَّى «المَصْمَك» وانتهيت من كتابة الفصول الثلاثة الأخيرة في شهر صفر سنة 1357هـ بمكة المكرّمة بعد عودتي إليها من الرياض.

ولقد مضى على تأليف هذا الكتاب حوالي أربعة وأربعين عاماً تغيرت خلالها «خريطة» العالم، وسقطت دول عُظمى من المرتبة الأولى إلى الدرجة الثالثة مثل بريطانيا، واتّسعت رقعة الشيوعية وانتشر نفوذها حتى سقط بين فكَّيْها بعض أقطار العروبة والإسلام، وكان آخر قطر إسلامي يسقط في جحيمها الملتهب أفغانستان، كما ساد العالم الظلمُ والفسادُ، وصعد الإنسان إلى القمر غير مرة وعاد إلى الأرض ومعه بعض ترابه وحجارته، وعربدت مراكب الإنسان الفضائية بين أقطار الكواكب والنجوم.

وأعظم كارثة حلّت بالإنسان العربي وبالمسلم سقوط فلسطين العربية المسلمة في يد اليهود بمساعدة من بريطانيا

وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي، واستفحل في العالم كله شرّ الصهيونية والشيوعية ومذاهب الهدم الأخرى التي منها الرأسمالية.

كل شيء في هذا العالم قد تغير خلال الأربع والأربعين سنة الماضية، واختلف عليَّ خلالها أربعة ملوك من آل سعود، توفي ثلاثة منهم، وهم: الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود، والملك سعود بن عبد العزيز، والملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز رحمه اللَّه، والرابع الملك خالد بن عبد العزيز مدّ اللَّه في عمره، وأعزّ به الإسلام والمسلمين.

وأذكر أن بدء اعتقالي بمكة المكرمة كان في شهر المحرم من سنة 1356هـ وأُفرج عني في شهر ربيع الأول سنة 1356هـ وبعد شهور أُعيد القبض عليّ؛ ونُفِيتُ إلى الرياض، وزُجَّ بي في سجنها الذي طواني في جوفه سبعة أشهر وعشرة أيام؛ يُضاف إليها خمسون يوماً قضيتها سجيناً بمكة المكرمة، وصار مجموع الشهور تسعة.

ولمضيّ هذا الزمن الطويل نسيت تواريخ الأيام والليالي، ولم تستطع الحافظة تذكُّرها وبخاصة بعد إصابتي منذ سنة بجلطة حادة في المخ.

وأحب أن أنبّه إلى أن التوقيت الذي جاء بالكتاب هو التوقيت الغروبي، فما كنا بهذه البلاد نتخذ التوقيت الزوالي، فهو بدعة طارئة، وما تزال ساعتي خاضعة للغروب لا

الزوال، فإذا وجد القارئ إشارة إلى ساعة معيّنة فالمراد التوقيت الغروبي.

وما أكثر ما هممت بطبع هذا الكتاب، فيحول بيني وبينه اشتغالي بطبع مؤلفات جديدة لي، فاصطحبته معي إلى مصر غير مرة، كما صحبني إلى بيروت مرات فيما مضى من السنين، ولكن لم يُقدِّر اللّه له أن يُطبع.

وفي سنة 1399هـ (1979م)، عزمت بعد التوكل على اللَّه أن أطبعه، وأعددت العدة لذلك، وتلاقى العزم المصمم وقرار قضاء «عطلة» الصيف ومعي كل أفراد أسرتي بقبرص، واصطحبت الكتاب مع مؤلفات أُخَر لي رجاء طبعه معهن في بيروت بعد إجازة الصيف.

ولكن، شاءت إرادة اللَّه أن أُصاب بجلطة حادة في المخّ بعد ظهر يوم الأربعاء 14 شوال سنة 1399هـ (5 سبتمبر 1979م) بعد اثني عشر يوماً من وصولنا إلى «لارنكا» إذ وصلنا إليها ليلة السبت 3 شوال 1399هـ وحسبت أنا وزوجي وأولادي وأطباء قبرص أنه آخر عهدي بالحياة، ولم يكن لي من أمل إلا أن يعيدني اللَّه إلى مكة المكرمة ويقبض بها روحي لأُدفَن في ثراها الطَّهور المقدس.

ولكن اللَّه تبارك وتعالى عندما ابتلاني لَطَفَ بي فيما قُدِّر عليّ، فيسّر العلاج، وهيأ لي حشداً حاشداً من قلوب المحبِّين اهتموا بأمري اهتماماً لم أكن أتصوره، وبدأ الاهتمام مساء اليوم الذي أصبت فيه، فاتصل بعضهم بأهلي بقبرص تليفونياً

يستفسرون ويعرضون بصدق كل ما في وسعهم.

وكان من أولئك الكِرام المهتمين خاصة وعامة، ومن أعرف، ومن لا أعرف، وفيهم المسؤولون من أمراء ووزراء وعلى رأسهم حضرة صاحب السموّ الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء، وحضرة صاحب السمو الملكي الشاعر المطبوع الأمير عبد اللَّه الفيصل.

ولم يقتصر الأمر على اهتمام المسؤولين وحسب، بل اهتم بأمري غير المسؤولين أيضاً، فبعث الشيخ علي شبكشي - نجل صديقنا الشيخ حسين شبكشي رحمه اللَّه وأَسكنه الفردوس الأعلى - طائرة خاصة نقلتني أنا وأهلي من قبرص إلى جدة، وذلك مساء يوم إصابتي، ومن مطار جدة إلى مستشفى الدكتور سليمان فقيه الذي تسلّمني جثة هامدة، فمدَّ اللَّه لي في الأَجَل بفضله ثم بفضل الدكتور سليمان فقيه وأطباء مستشفاه.

وبعد أن أزال اللَّه عني الخطر بفضله وكرمه بقي من الجلطة آثار أشدّها مصيبة فقدان البصر فبقي الكتاب لَقًى في خزانة مؤلفاتي المحفوظة، وعاودت نشاطي الأدبي والعلمي فصدرت لي كتب منها :

1- الجوهري مبتكر منهج الصحاح.

2- أصلح الأديان للإنسانية عقيدة وشريعة.

3- الإسلام دين خاص أم عام.

4- انحسار تطبيق الشريعة في أقطار العروبة والإسلام.

5- الشيوعية خلاصة ضروب الكفر والشرور والموبقات والعاهات.

6 - الديانات والعقائد في مختلف العصور، أربعة أجزاء.

وأعيد طبع كتب كثيرة لي منها:

1 - مؤامرة الصهيونية على العالم.

2- اليهودية والصهيونية.

3- الشيوعية والإسلام.

4- بروتوكولات صهيون.

5- عروبة فلسطين والقدس.

6- إنسانية الإسلام (باللغة العربية).

7- أحكام الحج والعمرة.

8 - صقر الجزيرة 7 أجزاء في مجلدين.

كما صدر لي بالإنجليزية كتاب «إنسانية الإسلام» وطبع لأول مرة.

ولكن هذا الكتاب لم يُقَدَّر له أن يرى النور، وتجاوزته عشرات من مؤلفاتي إلى عالم النشر وبقي رهينة خزانتي أربعاً وأربعين سنة!!.

أليس هو ذكرياتِ أو مذكراتِ سجني؟ بلى، فلا غرابة أن يبقى سجيناً هذا الزمن الطويل!.

ألّفته وأنا عزب، ويصدر بعد أن تزوجت غير واحدة، وقد أنجبت لي ثلاث ممن تزوجتهن أولاداً بلغ عددهم عدد أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام.

ألّفته وأنا شاب عزب، وأنشره وأنا أب لاثني عشر، بل جد كثير من الأحفاد.

ألّفته وأنا شاب قوي مِقدام، وأطبعه وأنا في قبضة الشيخوخة الفانية والأوجاع والأسقام الحاطمة.

ألّفته وأنا حاد البصر، وأقدِّمه للطبع وأنا لا أبصر.

وعندما عزمت على طبعه طلبت إلى زوجي «أم همام» أن تقرأه علي، فأخذت تقرأ وأنا أصغي إلى ما تقرأ، فعدتُ القهقرى أربعاً وأربعين سنة، وأمتعني الكتاب متعة مشوبة بالألم، وأحسست بالماضي البعيد من حياتي، إذ أرجعني الأسلوب إليه.

ورأيت من الأمانة الأدبية أن أدع الكتاب على حاله كما سبق لي تأليفه وأنا شاب، ودعتني الأمانة ألاّ أغيِّر منه شيئاً بحذف أو إضافة، وأن أدعه كما أُلِّف، لأنني رأيت أنه لا يصح لي أن أتدخل في هندسة بناء الكتاب ولا في أفكاره ومحتواه.

فهذا الكتاب ألَّفه الأديب الشاب أحمد عبد الغفور عطار، ولا يصح أن يتدخل فيه الشيخ الهرم المريض أحمد عبد الغفور عطار.

إنّ كلاً منهما غير الآخر، وبين الشخصيتين من الفوارق ما لا أحصيه لكثرته، ولا مجال لذكره.

لهذا تركت الكتاب كما ألَّفه مؤلِّفه الأديب الشاب، وعليه وحده تقع تَبِعة التأليف، وكانت حالي معه حال من يحقق كتاباً يريد أن ينشره، فهو مؤتمَن على النص، وليس

عليه تَبِعة التأليف، وإنما عليه تَبِعة النشر والتحقيق وتوثيق النص.

الحق، إن مؤلِّف الكتاب ليس هو من حققه ونشره، فالفارق بينهما كبير وكثير، ويكفي أن يكون المؤلِّف غير المحقِّق.

وقد قلت قصيدة في مناسبة كهذه منذ ثلاثين سنة أقتطع منها هذه الأبيات[1]:

كل شيء في سلوكي وحياتي قد تبدَّلْ
فأنا لستُ أنا الماضي الذي رجَّى وأمَّلْ
الشباب الغضّ ولَّى والفؤاد الخصب أمْحَلْ
والبناء الضخم أمسى طللاً يشكو ويسأَلْ
كل شيء في حياتي ووجودي قد تحوَّلْ

* * *

قد تغيَّرتُ فبعضي اليوم لا يعرف بعضَهْ
وتصاممتُ عن الماضي فلا أسمع نبضَهْ
ونسيت الضيق منه مثلما أنْسِيتُ خفضَهْ
وخبا النجمُ فلا يرسل في الظلماء ومضَهْ
وإذا البلبل خوف الأسر قد فارق روضَهْ

إن هذا الكتاب كتاب ذكريات يصوِّر فترة من حياتي

---

(1) نشرت هذه القصيدة في ديواني (الهوى والشباب) الطبعة الثانية، بيروت، سنة 1399 هـ (1979م).

عشتها خلف أبواب متينة مغلقة لا تُفتَح إلا نادراً، ووراء جدار كجدار السدود، فليبقَ بقاء الذكريات من دون التصرف فيه بنقص أو زيادة أو زخرفة.

وأحب أن أذكر للتاريخ أن ما اتُّهِمْتُ به وسُجِنْتُ بسببه كان باطلاً كله، ولم يأت الباطل من الحاكم الذي أمر بالسجن وإنما كان الباطل من الذين لفّقوا التهمة، وشهدوا زوراً، وقديماً قالوا: «شاهداكِ طلّقاكِ؛ شاهداكِ زوَّجاكِ!».

وبسبب التهمة الباطلة قضيت في جوف السجن تسعة أشهر، فكان يوم الإفراج بعد تمام التسعة يوم ميلادي الجديد.

وقد يسألني القارئ: مَنْ الذين لفّقوا التهمة وشهدوا الزور؟ فأُجيب: إنهم زملائي في البعثة حسدوني وحقدوا عليّ لتفوُّقي عليهم جميعاً؛ وما كانوا يلحقون غباري؛ وهم كذلك حتى اليوم والحمد للّه، فما أزال أغزرهم علماً، وأكثرهم شهرة، وأبعدهم صوتاً، ومؤلفاتي تجاوزت السبعين.

حسدوني ووشوا بي لدى الشيخ فوزان السابق قنصل المملكة العربية السعودية، بالقاهرة، فاستدعاني وحقق هو نفسه معي، واتهمني بأنني أنشر في الصحف المصرية حملات على المملكة السعودية، فنفيت له، واستدللتُ بحديث لي مع الدكتور طه حسين نُشر بجريدة «صوت الحجاز»[1]. واستشهدت له

(1) كانت تصدر بمكة المكرّمة، وما زالت تصدر بجدة تحت اسم «البلاد».

بزعماء الأدب في مصر: العقّاد والمازني وهيكل الأُلَى الذين كنت على صلة وثيقة بهم.

وقدّم الشيخ فوزان لي الدليل الذي لا يُنْقَض - كما ظن - حيث عرض علي مجلة نَشَرتْ مقالاً تجنَّى فيه كاتبه على الحكومة السعودية، وبآخر المقال بأقصى اليسار من الصفحة كلمة «غريب» وكأنه الاسم المستعار للكاتب كما حسب القنصل الذي قال لي: «ألست غريباً في مصر؟» فقلت: «بلى»، قال: «إذن، أنت كاتب المقال»، فقلت له: «أأنا السعودي الوحيد بالقاهرة؟ أليس بها غيري؟ أليس لي زملاء؟! لماذا لا يكون غيري الكاتب؟ إن الأمير فيصل هو الذي طبع مؤلَّفي المسمى «كتابي» على نفقته بمطبعة الحكومة، وكنت أستقبله كل عام في حفل زيارته للمعهد بقصيدة أو تحية نثرية فيهما ثناء على سموّه وعلى الحكم السعودي».

واستأذنت القنصل أن يريني المجلة فسلمنيها، وفحصتها، فإذا اسم المجلة «الغُرَيِّب» باسم صاحب امتيازها، ومن أول صفحة إلى آخر صفحة كلمة «غريب» في أقصى اليسار، فقلت لسعادة القنصل: «إن اسم المجلة «الغَريب»» ونطقتها بفتح الغين وكسر الراء، ثم أريته نهاية كل صفحة مختومة بكلمة «غريب» وقلت له: «هل المجلة لي؟ وهل أنا كاتب كل صفحاتها؟!».

وطلبت إلى القنصل أن يسأل عني زملاء لي وهم: إبراهيم السُّويّل الذي انتهت به المناصب إلى أن صار

مستشاراً بالديوان الملكي، وقد توفي منذ بضع سنوات رحمه اللّه؛ وعبد اللّه الخيال أحد السفراء السعوديين الناجحين - وأظنه الآن سفيراً بالنمسا - وعبد اللّه الملحوق - وهو أيضاً من السفراء الناجحين؛ ويشغل في هذه الأيام منصب سفير المملكة السعودية بالجزائر؛ فزكّوني وشهدوا لي شهادة طيبة.

ويظهر أن حسد الحسّاد كان أقوى من تزكية المزكّين وشهادة الشهود فتغلب الزور على الحق، فكان من أمر السجن ما قصصت في هذا الكتاب.

ولقد مات بعض الزملاء من البهّاتين الحاسدين وغيرهم فعفا اللّه عمن أساء، وغفر لمن افترى، وجزى عني الخير مَن أحسنَ إليّ منهم أو من غيرهم.

وكثير ممن ورد ذكرهم في هذا الكتاب قد انتقلوا إلى رحمة اللّه وعلى رأسهم الملك العظيم عبد العزيز مؤسّس الدولة السعودية الحديثة، والملك الشهيد فيصل قائد حركة الإسلام في هذا العصر، والشيخ محمد سرور الصبان، والشيخ عبد اللّه بن حسن آل الشيخ، والشيخ سعيد أبو ناصف، والشيخ صالح باخُطْمة، ومهدي القلعجي مدير الأمن العام، والشيخ فهد بن غِشِيّان، كما توفي صالح الشقاري مدير سجن المصمك بالرياض، وسليمان الخليفي مدير سجن الفرن بمكة المكرمة وغيرهم، رحمهم اللّه جميعاً.

والآن، وأنا أنشر هذا الكتاب بعد أربع وأربعين سنة من تأليفه أعلن بصدق وإخلاص وصفاء قلب وحُسن نيّة أنني

لست بحاقد على مَن كذبوا عليّ، وكان بهتانهم سبب سجني ونفيي، وأشهد اللَّه أنني سامحتهم لوجهه الكريم.

أما أولئك المحسنون عليَّ فأدعو اللَّه لهم دائماً من كل قلبي أن يُحسِن إليهم، وأن يجزيهم عني خير الجزاء.

والآن، وأنا أملي هذه المقدمة بعد أن أفقدتني الجلطة بصري فإنني أذكر الملك الشهيد فيصلاً ذكراً طيباً موصولاً، ودعائي له لا ينقطع منذ استشهد في يوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 1396هـ حسب تقويم مصر، فقد كنت بها يوم نَعيِه، رحمه اللَّه رحمة واسعة.

ولو كان الملك فيصل حياً لأهديت إليه الكتاب، فهو صاحب الفضل في إطلاق سراحي، فهو أجدر من يُهدى إليه، فأنا أهديه إليه، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقون كما قال اللَّه جلّ جلاله في مُحكَم كتابه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

الجمعة 13 ربيع الأول 1401هـ

18 يناير 1981م

أحمد عبد الغفور عطار

مكة المكرمة



تفتيش المنزل وليلة الاعتقال

هدأ الحي، وأغفى الناس، فقد مضى من الليل ثلثه، وخلت الشوارع من المارّة، فما كان الناس يسهرون، بل كانوا ينامون بعد صلاة العشاء بساعة أو أقل، وكان القمر في أوائل شهر المحرم من سنة 1356، وكان حجاج بيت اللَّه الحرام منتشرين في شوارع مكة وأزقّتها وجبالها، وإذا استثنينا المسجد الحرام والصفا والمروة فإن الصمت كان يغشى مكة المكرمة لولا حفيف الأشجار التي تهز الريح العنيفة أغصانها، ولولا صفارات العسس التي توحي بيقظتهم.

لولا كل ذلك لكان الحي أشبه بالمقبرة في هذه الليلة الباردة الموحشة.

* * *

كنت في هذه الليلة ساهراً مع بعض زملائي وأصدقائي، وعدت إلى البيت والليل يكاد يثلث، وبحثت عن الفانوس الهندي فإذا هو خالٍ من الغاز، وصَحَتْ أمي من الجلَبة التي أحدثتها وقالت: «لماذا تسهر إلى منتصف الليل، وقد نَفِدَ الغاز ولم نشتره؟ أتعشيت؟».

فقلت: «لا».

وكانت البيوت تحتفظ بالغاز والشمع، فأشعلت أمي شمعتين: إحداهما لي، والأخرى تستضيء بها لتسخّن لي العشاء، وكان الناس المتحضرون من سكان المدن يطهون على الفحم، أما البدو فكانوا يطبخون على الحطب.

ووضعت أمي الطعام بين يديَّ، وكان أرُزّاً ولحماً مُعَرَّقاً، وبعض الخضراء المطبوخة باللحم، وغسلتُ يدي، وما كدت أمدّها إلى صحن الأرزّ وأرفع يدي باللقمة إلى فمي حتى سمعت منادياً يناديني باسمي، فأعدت اللقمة إلى الصحن، حتى أستعد للمنادي، ولم يكن الصوت معروفاً لدي، بل كان غريباً عليَّ، وكان خافتاً، فسألت: «مَنْ؟» فأجاب: «انزل سريعاً».

قلت: «ماذا تريد في هذا الوقت من الليل؟».

فقال: «انزل، أريد محادثتك في أمر هام».

وكنت في الطبقة الثانية التي تحوي غرفة مستطيلة، وبجانبها «خارجة»[1] مكشوفة، كنا ننام فيها، وكانت الكلة (الناموسية) منصوبة وكنت أنا أنام في هذه الخارجة، فالبرد لم يكن شديداً وإن كانت الريح شديدة يخفف من حدتها الجدران المحيطة بهذه الخارجة..

واستبطأني المنادي فأعاد النداء فأجبته، وأخذت الشمعة

(1) الخارجة عند سكان مدن الحجاز شرفة مسورة للجلوس والنوم، وهي كالسطح.

ونزلت فإذا الريح تطفئها، وفتحت باب منزلنا فإذا رجل يرتدي ملابس مدنية، وأمام باب منزل جارنا خمسة بملابس عسكرية، وطلب المدني أن آتيه بمصباح أو فانوس، فقلت له: «الفانوس لا غاز فيه، والشمع لا يثبت للريح»، وصعدت إلى الغرفة التي بالطبقة الثانية وسألت أمي ألا يوجد لدينا فانوس آخر، فأجابت بالنفي، فأطللت من نافذة «الروشن» وأخبرتهم ألاّ غاز لدينا، والشمع لا يثبت للريح، فطلب المدني أن أنزل إليهم سريعاً.

وبينما كنت أهبط أصابتني الحيرة من هؤلاء، ولم يكن جارنا من ذوي الشبهات، بل كان رجلاً كبيراً، في سن أبي، وما ثَمَّ ما يدعو إلى مداهمة منزله في هذا الوقت من الليل، فالرجل طيب ومستقيم، وليس في أمره ما يريب، أو يدعو إلى الاهتمام به.

ولماذا لا ينادونه هو نفسه إذا كان طَلِبتهم؟ ولماذا لا يطلبون إليه هو نفسه أن يأتيهم بمصباح؟ أتراهم يريدون أن يباغتوه؟

كل ذلك جائز، وإن كنت لا أتصور أن يكون جارنا الطيب طَلِبة الحكومة، وكذلك ما كان يدور بخلدي أن أكون أنا أو أحد إخوتي الثلاثة الذين يكبرونني المطلوب.

وأقبل إليَّ أحد العسكريين - وكان يرتدي «بذلة» ضابط تحلِّيها أوسمة أو ما يشير إلى رتبته العسكرية، وكنت أقف على عتبة بابنا المرتفعة حوالى متر وقال لي

الضابط الكبير في أدب وشيء من اللطف:

-« إنك متهم بتعاطي المشروبات الروحية، ونريد تفتيش منزلك!».

فنفيت تهمته وزعمه، وقلت له: «لم أضع قط في فمي قطرة خمر!».

وكان جارنا الآخر بخاري الأصل، وله دكان صغير، وبه فانوس خافت فأحضره أحد الجنود، وكان جارنا هذا يتهيأ لإغلاق دكانه بعد أن كان هو وأصحاب له وبعض العسس يتسامرون.

قال لي الضابط: «نريد تفتيش دارك»، وبدأوا بالطبقة الأولى، وكانت بها غرفة المكتبة، كما كانت بها غرفتان أخريان، وكان أحد الجنود يحمل «كيساً» فارغاً من الخيش، ودخلوا جميعاً المكتبة، وأخذ الضابط والموظف المدني يفتشان الكتب ويقلّبان أوراقها، كما كانا يفحصان أوراقي الخاصة فحصاً دقيقاً، ويجمعان كل ورقة مكتوبة بخطي أو بخط غيري؛ فقلت لهما: «إن من يتّهم إنسانا بشرب الخمر يبحث عن زجاجات، أفتظنان أن الكتب والأوراق مخابئ لزجاجات الخمور؟» فقال الضابط: «قد تكتب رسالة إلى صديق تطلب منه خمراً، أو تقول في مدحها شعراً» فقلت: «إن كثيراً من الصوفية نظموا أشعاراً رائعة في الخمر وما ذاقوها قط، ولو وقعت قصائدهم في أيديكم لأثبتُّم عليها تهمة شرب الخمر».

وراح الضابط والمدني يفحصان أوراقي ويضعان ما ينتهيان من فحصه في الكيس حتى امتلأ نصفه.

وبعد أن انتهيا من تفتيش المكتبة وأخْذ كل أوراقي قالا: «نريد أن نفتش الغرفة التي تقع في الطبقة الثانية التي كلمتنا منها»، وصعدوا إليها، وأخذوا ما وجدوا من أوراق.

وكان بين ما أخذوا أوراقاً بها بعض ما نظمت من الشعر، كما أخذوا بعض مؤلَّفات كانت من أوائل ما ألّفت وأنا في مصر، منها رسالة في اللغة عنوانها: «هل اللغة توفيقية أم اصطلاحية» كتبتها لدار العلوم بتكليف من أستاذنا بها في فقه اللغة، ومن حُسن حظي كانت بعض مقالاتي المنشورة بمجلتي الخطية المسمّاة «الشباب الناهض» التي كنت أصدرها وأنا طالب بالمعهد العلمي السعودي، ومقالات أخرى عند صديقي الأستاذ محمد خياط، فبقيت سليمة محفوظة.

وكان اسم الضابط «مراد أفندي» أما الرجل الآخر المدني فاسمه «محسن حواري»، سكرتير مدير الأمن العام واسمه «مهدي القلعجي» وأما الأربعة الآخرون فجنود، والجنود - عندنا - أمِّيون.

وكان سكرتير المدير أكبر من الضابط منصباً، أما الضابط فكان رئيس المنطقة الأولى التي يتبعها حي المسفلة الذي أسكنه.

وطلبا إلي أن أصحبهما إلى مدير الأمن العام الذي

ينتظرنا، فطلبت إليهم أن يتناولوا العشاء معي، أو يأذنوا لي بتناوله، فقال لي سكرتير المدير: «إن الأمر لا يستغرق إلا دقائق ثم تعود إلى منزلك»، فاضطررت إلى السير مع رجال «حملة» التفتيش.

وكان إخوتي الثلاثة الكبار غائبين عن المنزل، في اجتماع صلح بين متخاصمين يصلحون بينهم، ومضى إليهم من أعلمهم بمداهمة المنزل فأسرعوا بالعودة ورأوني مع حملة التفتيش ورأوا جندياً يحمل كيساً مملوءاً نصفه بما لا يعلمون حقيقته، فسألوا الضابط المعروف لديهم فطمأنهم.

ومضيت مع رجال الحملة وإخوتي يتبعوننا، وعسس الحي يشيعوننا بنظراتهم، وما كان أحد يعرف شيئاً مما حدث. وصار بعضهم يُخَمِّن ما يخطر بباله حتى وصلنا إلى مبنى إدارة الأمن العام ودخلنا غرفة المدير، وكانت متسطيلة ومضاءة بالكهرباء المخصصة للمسجد الحرام، وكان مبنى الأمن العام يقع أمام باب «أم هانئ» من أبواب الحرم، وكان المبنى يحوي بعض دوائر الحكومة كمجلس الشورى، ومديرية المعارف، والخارجية، وكلها تقع بالطبقة الثانية، أما الطبقة الأولى فكانت للأمن العام وكتابة العدل، والمحكمة المستعجلة، وكان المبنى كله يسمى مقر الحكومة، وهو من مباني العهد التركي.

دخلنا غرفة مدير الأمن العام، وكان عملاقاً أصله من العراق من بغداد، شديد القسوة جبّاراً، التهمني بعينيه في شيء من الدهش، ثم أمرني بالجلوس على كرسيٍّ بجانبه

وقال: «أأنت الأستاذ أحمد عطار»، فقلت: «نعم».

وقال: «متى قدمت من مصر؟».

قلت: «منذ خمسة عشر يوماً».

قال: «أأنت مؤلِّف الكتاب المسمى «كتابي»؟».

قلت: «نعم».

قال: «أنا رجل أقدِّر الأدباء والمثقّفين، ويعلم اللَّه أنني آسف على وقوفي منك هذا الموقف، وأنت - لا شك - تعذرني، فأنا موظف ومأمور».

ثم قال: «يقولون: إن في كتابك إلحاداً».

قلت: «إن ذلك كذب، فليس فيه إلحاد، وأحب أن تعلم أن الكتاب مُهْدّى إلى الأمير فيصل نائب جلالة الملك في الحجاز، ولما قدَّمتُ إليه الكتاب وطلبت من سموِّه أن يطبعه على نفقته الخاصة وافق، وأرسل الكتاب إلى لجنة مكوَّنة من مديرية المعارف ووزارة الخارجية وصححتْه وأجازت طبعه، وطبع بمطبعة الحكومة على نفقة الأمير فيصل، ولو كان فيه إلحاداً لما أجازت اللجنة طبعه، والمطبعة نفسها تمتنع عن طبع أي كتاب يحوي شيئاً من الإلحاد».

ثم تركني المدير وطفق يفحص الأوراق التي أخذوها من بيتي، والضابط الكبير يساعده بترتيب الأوراق وتقديمها له.

ورمقني المدير فتوهم أنني أنعس وقال للضابط مراد أفندي: «خذ الأستاذ إلى منطقتك وليقضِ ليلته عندك».

وغادرنا مكتب مدير الأمن العام «مهدي بك» إلى

المنطقة التي كانت تبعد عنها ثلاث دقائق للماشي.

كنت أعرف مبنى المنطقة فقد كنت أمرُّ بها في ذهابي إلى مدرسة المسعى الابتدائية أربع سنوات، أو الذهاب إلى دكان والدي أحد تجار مكة، ويقع دكانه بالشارع اليوسفي القريب من المدرسة، وحين إيابي إلى المنزل.

وكانت المنطقة في طريق السعي بين الصفا والمروة، ولا تبعد عن الصفا غير أمتار معدودة، تقع في طريق الهرولة، وصعد بي الضابط إلى غرفة في أعلى المبنى الذي يفصله عن جدار المسجد الحرام شارع لا يزيد عرضه عن ثمانية أمتار.

وأجارك اللّه من هذه الغرفة، فالبعوض فيها كالمطر، وليس وجه الشبه غير الكثرة، وكان دويّ البعوض أشد من دويّ الرعد، وإن كان دويّ الرعد يبشِّر بخير، ودويّ البعوض نذير شر مستطير.

وأحضر لي أحد إخوتي الكبار فراشاً من البيت والعشاء، وأخذت أفكِّر في أمري، وأسأل: إذا كان الاتهام أن في كتابي إلحاداً فلماذا لم يطلقني بالكفالة؟ ولماذا يأمر مدير الأمن العام بأن أقضي ما بقي من الليل في المنطقة؟ أليس هذا «توقيفاً» بلغة الشرطة والمحاكم؟ أليس هو حبساً؟ بلى.

وحاولت أن أنام ولكن البعوض حرمني النوم، فلسعه يسلب الكرى، ولم أستطع إغماض عيني، وسمعت أذان الفجر الأول ثم أذان الفجر الثاني، وكنت قد توضأت

استعداداً للصلاة، ثم صليت وقرأت شيئاً من القرآن مما كنت أستظهره، ومع النور اختفى البعوض، وأخذتني سنة من النوم، وحضر إخوتي ومعهم الفطور، ومُنِعوا من مقابلتي، وأحضره لي أحد الجنود، وكان الفطور خبزاً وفولاً ومعصوباً - وهو خبز من القمح يُلْبَك بالموز والسمن والعسل أو السكر - وبعد أن أفطرت طلبت من الجندي أن يحضر لي شاياً من مقهى قريب فأحضره.

وجاء صديقي محمد بك خياط، وكان يمتهن الخياطة، وجاءه لقب «بك» إرثاً، فأبوه من أعيان بخارى الذين فرّوا بدينهم من الشيوعية ولجأوا إلى مكة، وما أدري أين توفي، ولكن الذي أدريه أن محمد خياط كان مع أمه، فامتهن الخياطة، ويظهر أن «مراد أفندي» تركي الأصل، وكان على صلة طيبة بمحمد بك خياط، فلما جاء لزيارتي أخبره مراد أفندي أن زيارتي ممنوعة، وأن مدير الأمن العام أمره بتدوين اسم كل من يجيء إلى زيارتي.

ولم يستطع مراد أفندي السماح لصديقي محمد خياط بزيارتي مخافة أن ينقل أحد الجنود الخبر إلى مدير الأمن فيعاقب مراداً، ولكن وعده بإبلاغي تحيّته وقدومه لزيارتي.

وجاءني مراد أفندي وطيّب خاطري وطمأنني، وطلبت إليه أن يطلب من محمد خياط أن يحضر إليّ بعض الكتب، فأحضر لي كتاب «حياة محمد» لهيكل، و«سعد زغلول» للعقاد، وبعض مؤلَّفات المازني وسلامة موسى.

والحق أن مراد أفندي كان لطيفاً معي، وكان يتردد علي، ويحضر لي الشاي على حسابه ويشربه معي، ويتحدث إلي، ويشجعني.

ومضى أكثر النهار وأنا في ضيق وعُسر من أمري، وفكّرت ملياً في أسباب اعتقالي، فلم أجد سبباً، واستبعدت أن تكون تهمة الإلحاد سبب الاعتقال والتفتيش، فما في «كتابي» إلحاد، وكيف يكون فيه إلحاد وأنا من تربة المسجد الحرام ومن أبناء مكة، وتلقيت علومي بالمسجد الحرام، وخريج المعهد العلمي السعودي، وشديد الحماسة للدين، وعدوّ الإلحاد، ويشهد لي مشائخي في الحرم والمعهد بالصلاح والتديُّن والاستقامة، وصلاة الجماعة في الحرم، ولما ابتعثنا إلى مصر للدراسة كنا نصلي الظهر جماعة بكلية دار العلوم، كما كنا نصلي نحن الطلبة المبتعثين بدار البعثات الصلوات جماعة، فكيف يكون في كتابي إلحاد وهو مما ألَّفته وأنا طالب وطبعته قبل سفري إلى مصر.

زاد تبرُّمي وضيقي، وأخرجت من علبة سجائري غطاءها وكتبت فيها هذه الرسالة:

«إلى من أتى بي إلى هنا.

لست أعلم أن هناك ذنباً اقترفته أُعاقَب عليه بالتفتيش والاعتقال.

وما أعلم أن هناك جريمة ارتكبتها أستحق عليها أن أنزل منازل المجرمين!

وإن كان هناك ما يوجب سجني أو اعتقالي فأطلب التحقيق العاجل، وإلا السماح لي باستقبال من يزورني من الأهل والأصحاب، وإلا فسأضرب عن الطعام حتى يُجاب طلبي».

ووقّعت الرسالة بإمضائي، وتسلمها مني مراد أفندي وذهب بها إلى محسن حواري الذي أوصلها إلى مهدي بك، فاختار التحقيق العاجل.



التحقيق العاجل

جاءني مراد أفندي وقال لي: إن مدير الأمن العام قد استجاب للتحقيق العاجل، وهو في انتظاري. وكنت مرتدياً ملابسي، ومشيت معه قبيل صلاة المغرب بدقائق، وكان الناس ينظرون إلينا، وفيهم كثير كانوا يعرفونني، فقد كنت من أبرز شباب مكة، وما كانوا يعرفون شيئاً عن سبب اقتياد الضابط لي، فهم يعلمون أني شاب أديب ومستقيم.

ودخلنا غرفة مدير الأمن العام وأخذت مكاني الذي كنت أخذته البارحة، ورأيت «محسن حواري» والمدير يربض على مقعده كالأسد، وانطلق أذان المغرب من مآذن المسجد الحرام وأنا أتابع الأذان، وكنت متوضئاً فصلّينا جماعة بغرفة المدير.

وتحدث إليّ المدير بعد الصلاة حديثاً فيه شيء غير قليل من اللطف والاعتذار، ووعدني بالمساعدة إذا قلت الحق.

وتحدث المدير مع سكرتيره بالتركية حديثاً حول اتهامي الصحيح وعن الأسئلة، وكانا يعتقدان أنني لا أفهم التركية فتحدثا بها فيما بينهما وكنت أفهم التركية كما كنت أجيد التحدث بها وببعض اللغات الشرقية كالفارسية والجاوية.

وعرفت من حديثهما التهمة وهي أنني خصم الحكومة السعودية، وأنني نشرت في صحف مصر ما يشوّه سمعتها.

وبعد عشرة أسئلة من مدير الأمن العام مع أجوبتها مني لا ضرورة لسردها ختم مدير الأمن العام الحديث بهذا الوعيد إذ قال: «إذا لم تقل لنا الحقيقة فسنأخذك بكل أسباب الشدّة والتضييق حتى تعترف لنا بالحقيقة!».

كنت أصغي إلى وعيده بكل حواسي، وما أدري ما الذي أجال بخاطري ببيت المتنبي:

وإذا لـم يـكـنْ مـن الـمـوت بُـدٌّ
فـمـن الـعـار أن تـكـون جـبـانـا

إن مدير الأمن العام فظ غليظ، وينفّذ وعيده، ولا ضير عليه إذا مات في يده متّهم من أثر التعذيب، ومثلي لا يحتمله، بل إن مجرمين عتاة لم يحتملوه فلفظوا أنفاسهم بين يديه أو اعترفوا، فإذا نفّذ وعيده معي فإنني سأفقد حياتي بلا ريب على يديه، وما دام الموت واقعاً لا محالة فمن الخير أن أموت شجاعاً، وأكون شاباً قوياً عزيزاً.

الحقيقة التي يريدها مدير الأمن العام ليست إلا وهماً وكذباً، هو يريد مني اعترافاً بجريمة لم تصدر مني.

هذه هي الحقيقة عنده، والحقيقة التي عندي نفي التهمة الموجَّهة إليّ بدون دليل، ولما عجز مدير الأمن عن الدليل أو البيِّنة رأى سيد الأدلة والبيّنات الاعتراف، وهو سهل الانتزاع عن طريق التعذيب غير المحتمل.

الحقيقة التي يريدها باطل محض، وهي تغاير الحقيقة التي عندي، وكل منا يريد الحقيقة التي ترضيه، وكلانا على طرفي نقيض. هو يملك السلطة إلى حد أن يهلك من يقع بين يديه، وأنا أعزل. أنا مسؤول عن كل كلمة أقولها، وهو غير مسؤول، لا يسأله أحد عن خطئه.

إن التحقيق الذي أجراه معي لم يوصله إلى إثبات التهمة علي، كان يلقي السؤال الذي يُخيَّل إليه أنه أوثقني؛ فإذا جوابي يبرئني ويبعد عني الاتهام، وعندما يعجز المحقق المتسلط يتخذ التعذيب ينتزع به الاعتراف، أو يملي الاعتراف فإذا أبى المتّهم أن يستجيب للإملاء لجأ المحقق إلى التعذيب الذي لا يُطاق، فيرى المتّهم الموت أهون عليه من ذلك العذاب فيعترف تخلُّصاً مما يلقاه، وحينئذ يبتهج المحقق، لأنه ملك سيد الأدلة وهو اعتراف المتهم. يزعم المحقق أو يملي على المتهم أن يفتتح اعترافه بقوله: أنا فلان أعترف بطوعي واختياري وبدون إكراه أو تضييق أنني اقترفت جريمة كذا.

وبذلك يكون المتهم المسكين قد أوثق نفسه بنفسه وقدَّم البيِّنة التي تدينه، والمحقق غير مسؤول، ولا تثريب عليه، وإنما التثريب على المتهم الذي اعترف بطوعه واختياره بشهادة خطه وتوقيعه وشهود آخرين من ذوي العدالة والنزاهة سمعوا اعترافه وشهدوا عليه.

وأغلق مدير الأمن العام محضر التحقيق الذي لم يوصله

إلى ما يريد، فختم الجلسة بقوله: «أقسم باللّه، إني لا أريد بك أي سوء. وإنما أريد لك الخير، وأرجو أن تعذرني، إنني معذور، فأنا أعطيك مهلة أربع وعشرين ساعة ثم أستدعيك لتعترف بالحقيقة قبل أن نأخذك بالشدّة والتعذيب، وحينئذ تجمع بنفسك على نفسك العقوبة يسبقها العذاب، وأنت المسؤول، فانظر ما ترى! والخيار لك».

غادرنا مبنى الأمن العام إلى المنطقة مصحوباً برئيسها مراد أفندي الذي أبدى الأسف والأسى على مصيري، فمهدي بك جبّار، وما أوعد إلا نفّذ، ومثلي لا يحتمل عذابه، ومن الحتم أن العذاب سيقضي على حياتي!

ولقد شعرت وأنا أمشي مع رئيس المنطقة بأنه لم يبقَ لي من الحياة غير الأربع والعشرين ساعة إلا إذا أدركني اللّه سبحانه وتعالى برحمته.

وما كانت طرق التعذيب ووسائل الشدة بخافية عليّ! فكل ذلك معروف للناس، الجَلْد المبرِّح إلى حد التلف، الكيُّ بالسفافيد! قطعِ الأنامل، حصْر البول، السهر، الوخْز واللذغ في المواضع «الحساسة».

هذه بعض صنوف العذاب المستعملة لانتزاع الاعتراف والويل لمن وقع بين يدي مهدي بك، إنه لن ينجو بحياته إذا عذّبه، بل فارق أناس عتاة حياتهم من عذابه!

وقبل أن أودّع مهدي قلت له: «يا بك، إن في يدك سلطة كبرى، ولا يفصل غرفتك عن بيت اللّه إلا أمتار

معدودات، وإني لصابر لما قضى اللّه، ولكن أرجو أن تذكر أن اللّه أكبر كلما رأيت أنك كبير! ولا ينفعك يوم القيامة وأنت بين يدي اللّه سلطان ولا عذر ولا شفيع، ولعلك خلال المهلة التي أعطيتنيها تفكر في اللّه وفي مصيرك أيضاً، فالرسل خير خلق اللّه لم يخلّدوا في الحياة مع أنهم تُقاة صالحون، والفراعنة، والملوك أيضاً طواهم الموت، ولا يبقى غير اللّه الواحد القهّار!».

وبينما أنا ورئيس المنطقة عائدان إليها لأقضي بها فترة التوقيف والمهلة، قابلت أخي الذي يكبرني واسمه محمد، وسمح لي مراد أفندي بأن أتحدث إلى أخي، فأخبرته بما كان من التحقيق، وبوعيد مهدي بك، وبالمهلة التي أعطانيها، وطلبت إليه أن يمضي إلى الشيخ محمد سرور الصبان، ويخبره بكل ما ذكرت له؛ وأن يسرع إلى نجدتي.

وكان محمد سرور الصبان زعيم الأدباء، ومحبوباً من المسؤولين ومن الناس، وكان مهدي بك يعتز بصداقته للشيخ الصبان.

وما كاد أخي يسمع بما أنبأته حتى كاد يصعق فأسرع إلى منزل الشيخ محمد سرور الصبان - وكان بشعب علي - وكان ابن أخته ويدعى «محمد عاشور» صديقاً لي، وكل إخوتي ووالدي معروفون لدى الشيخ الصبان.

واستُأذِن لأخي فأذن الشيخ محمد سرور وقابله أخي وأخبره بكل ما علمه مني، فطمأنه الشيخ محمد سرور وقال له:

«أبلغ أخاك تحياتي، وقل له: لن يناله أي سوء بمشيئة اللّه».

وودّعه أخي وجلس إلى «محمد عاشور» وما مضى عليه غير دقائق حتى جاء مهدي بك إلى الشيخ محمد سرور ومكث لديه بعض الوقت ثم غادره، فدخل محمد عاشور على خاله وأخبره أن أخي محمداً ما يزال باقياً، فنهض الشيخ محمد سرور إليه وقال له: «لقد أخبرني مهدي بك بكل شيء عن أخيك، ولم يسفر التحقيق عن أي شيء يدينه، كما أن تفتيش داره وفحص أوراقه لم يسفرا عن أي إدانة، وقد وعدني مهدي بك بألا يُمسّ أخاك بأذى أو مكروه لا بالقول ولا بالفعل».

وأسرع أخي إليّ يحمل إليّ البُشرى، وينقل إليّ ما ذكر له الشيخ محمد سرور الصبان فاطمأننت بعض الاطمئنان، وودعني ومضى أخي فبقيت في غرفتي بأعلى مبنى رئاسة المنطقة الأولى.

ومع أنني شعرت بشيء من الاطمئنان بسبب مكانة الشيخ محمد سرور لدى مهدي بك فإن المخافة ما زالت في نفسي ولم تفارقني، فأخذت أبتهل إلى اللّه أن يكون معي في هذه المصيبة التي نزلت عليّ وأنا بريء.

ثم استغرقت في نوم عميق لم أصحُ منه إلا على صوت المؤذّن يؤذن لصلاة الفجر، فتوضأت وصليت، ثم قرأت شيئاً من القرآن كعادتي كل صباح، ثم ابتهلت إلى ربي أن ينجيني من التهمة الدهياء.

وجاءني أخي بالفطور وزارني زيارة خفيفة ومضى واعداً

بالعودة لأخذ الأواني التي أحضر فيها الفطور، فأفطرت، وطلبت إلى أحد الجنود أن يأتيني بشاي، فأحضره، وأخذت أدخن السجائر وأفكر في ما أنا فيه، وفي حرماني من العلم أتزوّده من مصر.

وزارني مراد أفندي وكان لطيفاً معي، وكان يسمح لإخوتي بزيارتي، وأرادت أمي أن تزورني فلم يُسْمَحْ لها، كما لم يُسمح لأصدقائي بالزيارة.

وكانت الغرفة التي أنزلها صغيرة، مساحتها متران في مترين ونصف متر، وكانت للضباط الصغار الذين يتمرّنون على يد مراد أفندي، فكانوا يزورونني، وكنت أشعر بشيء من الراحة والسلوى.

وأمضيت النهار في القراءة، فقرأت كتاب «حياة محمد» صلى اللّه عليه وسلم لهيكل، ووجدت في قراءتي إياه راحة نفسية ومتعة روحية وفكرية.

وزارني صديقي محمد بك خياط، فقد سمح له مراد أفندي بزيارتي، وقُبَيل أذان المغرب بدقائق ودّعني.

وغربت الشمس ودقت ساعة دار الحكومة أولى دقاتها الاثنتي عشرة إيذاناً بانتهاء النهار، وصاحبها أذان المغرب، وفرشت سجادة الصلاة وأدّيت صلاة المغرب وأطلت في الدعاء عقبها كما دعوت اللّه وأنا ساجد.

وبدأ مع ظلام الليل بعض القلق الممزوج بالخوف مما يخبئه لي القدر، ولكنني استسلمت للدعاء والذِكْر فشعرت

بعض الأمن والطمأنينة وراحة القلب.

وأذّن المؤذن لصلاة العشاء فزادني الأذان أمناً وطمأنينة، وصليت العشاء ثم الوتر، وأكثرت من الابتهال والدعاء. ١

وجاءني أخي بالعشاء فتناولت منه أنا وبعض الضباط الصغار، وبقيت وحدي أسمع أدعية الساعين بين الصفا والمروة، واستلقيت على فراشي، وبدأت الأفكار السود تساورني والقلق يصحبها.

مضى من الليل ثلثه فلم أطمئن، فمن الجائز أن مدير الأمن العام ينتظر خلوّ الشوارع من المارّة وقد خلت إلا من الآحاد، وعندما تخلو الشوارع خلواً تاماً من المارّة يستدعيني للتحقيق وانتزاع الحقيقة التي يريدها.

وكلما مرت الدقائق زادت الفِكر السيئة، وما أدري إلا وصوت المؤذن يهتف للفجر: اللّه أكبر، فاستيقظت وكأنني في رؤيا، وتأكدت أن الفجر قد طلع فحمدت اللّه كثيراً على أن مهدي بك لم ينفّذ وعيده، وأنه صدق في وعده للشيخ محمد سرور الصبان.

وجاءني أحد إخوتي الكبار بالفطور وسألني فأجبته بأن مهدي بك لم يطلبني، وأنه برَّ بوعده للشيخ الصبان.

وزارني الصديق محمد خياط وكان دكانه قريباً من المنطقة، وأخبرته بما كان فابتهج.

ومضى النهار في القراءة، وفي تدوين هذه الصفحات كلما رأيت الحاجة إلى التدوين.

إصابتي بالملاريا

قضيت في سجن المنطقة الأولى خمسة أيام ابتداء من الأحد إلى يوم الخميس، وكان كل يوم يأتي يمضي كسابقه في القراءة وشرب السجائر والشاي.

وفي ظهر يوم الخميس شعرب برعدة تحوّلت إلى حُمّى، فلم أستطع أن أتناول الغداء فأعطيته الجنود، لأني لو أعدته إلى أمي لحطَمتها الوساوس والأفكار حَطْماً، واستلقيت على فراشي، وشعرت ببرد شديد وأصابتني القُشَعْريرة، ودخل وقت العصر وأذّن مؤذن المسجد الحرام فلم أستطع النهوض للوضوء والصلاة، وبقيت في فراشي ساعة ثم نهضت في شيء غير قليل من العُسر، وتوضأت وصليت العصر ثم عدت إلى فراشي.

وعلم مراد أفندي بما أصابني من الحُمّى فأسرع إلي، ورقّ لحالي، وكلم مدير الأمن العام وأخبره بحالي فأذِن له باستدعاء طبيب من المستشفى الحكومي، وأنا لا علم لي بكل ذلك، ففوجئت قُبَيل المغرب بمراد أفندي يصحبه الدكتور حسني الطاهر - وهو طبيب وأديب درس في فرنسا واطّلع اطلاعاً واسعاً على آدابها، وكان يعرفني وقرأ ما كتبت

- فذهل عندما رآني وقال: «اللّه! ألم تكن في مصر للدراسة؟ ما الأمر؟».

قلت: «لا أعلم».

وفحصني فحصاً دقيقاً، وضربني إبرة أنزلت حرارة جسمي، وتمنى لي الشفاء، وودّعني ومضى.

وصليت المغرب، وفوجئت مرة أخرى بمراد أفندي يدخل ومعه رجل إسعاف، وأخبرني أن الدكتور حسني الطاهر كتب تقريراً مفصَّلاً وأرسله إلى مدير الأمن العام يذكر له أنني أصبت بالملاريا، وبقائي في سجن المنطقة خطر على حياتي، وأوصى بنقلي إلى المستشفى فوراً.

وأعلم مدير الأمن العام مهدي بك الأمير فيصلاً نائب جلالة الملك في الحجاز بحالتي الصحية ومرضي وما قرره الطبيب فأذِن بانتقالي إلى المستشفى.

وجاء إخوتي إلى المنطقة وعلموا بالأمر وتسلّموا فراشي وكتبي...



إلى مستشفى الحكومة

غادرت غرفتي بالمنطقة وهبطت الدرج معتمداً على رجل الإسعاف ومراد أفندي، وكانت سيارة الإسعاف تنتظر عند باب المنطقة، وهبطت بضع الدرجات وأنا منهوك القِوى، ثقيل الخطى، شاحب اللون، وأتظاهر بالقوة، والناس مجتمعون دفعهم الفضول إلى أن يتطلعوا إلى هذا الذي تنقله سيارة الإسعاف، وفيهم كثير يعرفونني، وبعضهم علم بأني سجين، فظنوا أن الشرطة عذّبتني حتى أصابني ما اضطرها إلى نقلي إلى المستشفى.

ودخلت سيارة الإسعاف وأنا في حال من اللغوب مما أكد لمن يعرفونني أن الشرطة عذبتني، مع أنه لم يصبني منها أي أذى غير السجن ومنع الزائرين.

ولم يكن المستشفى بعيداً، بل كان قريباً من المنطقة وأقرب منها إلى مبنى الأمن العام، وكانت دوائر الحكومة قريباً بعضها من بعض.

ودخلت سيارة الإسعاف المستشفى، واستقبلني بعض الأطباء فيهم الدكتور حسني الطاهر، وأنزلوني في عنبر يحوي أكثر من عشرين سريراً، وفيه بعض المرضى.

وأُعِدَّ لي سرير خاص وفراش وثير وأغطية جديدة، وعلى السرير كلة (ناموسية) بل كان على كل سرير كلة، ولم تكن بالمستشفى غرف خاصة للمرضى.

ولما كنت سجيناً فإن النظام يقضي بأن يكون حارس من الشرطة يحرسني، وكان يتغير الحارس كل ساعتين، وكان جنود الشرطة أُمِّيين مغرورين، يُخيَّل إليهم أنهم طبقة متميزة علينا نحن أفراد الشعب. بل يرون نفسهم من الحُكَّام، ونحن الأفراد خُدّام.

وكان بعض الجنود طيبين سُمَحاء يسمحون لزواري بالجلوس إليّ والحديث معي، وكان بعضهم أفظاظاً غلاظاً لو استطاعوا منع الذباب من الوقوع عليّ لفعلوا.

نمت الليلة الأولى بالمستشفى نوماً عميقاً هادئاً، وكانت عناية الدكتور حسني الطاهر وزملائه الدكتور بشير الرومي وغيره بي عناية كبيرة، وكانوا يزورونني ليل نهار، وكان بعضهم - وبخاصة الدكتور حسني الطاهر - يقضون أوقات فراغهم معي، وكنت أرتاح إليهم كثيراً.

وفي صباح الليلة الأولى زارني إخوتي وكثير من أقربائي وزملائي وأصدقائي، وكان بضعة أطباء يشرفون على علاجي، واللّه كريم لا يجمع بين عُسرين، فقد شُفيت من الحمى، وسُمِحَ لي بالطعام من منزلي، وكان الجندي الحارس يشاركني الطعام إذا وافق وقت حراسته وقت الأكل، وما دام فمه مرهوناً بطعامي فهو يُحسن معاملتي، ويسمح لزواري،

وقد صدق المثل العامي في الحجاز: «أطعم الفم تستح العين».

ولقيت أنا وزواري من بعض هؤلاء الجنود الويل من معاملتهم الفظة الغليظة.

وذات مرة كان الحارس مشغولاً عني ببعض رفاقه من البدو يشرب معهم الشاي والدخان، وأردت قضاء الحاجة فغادرت العنبر من الباب الخلفي، وفوجئ الجندي الحارس بخلوّ سريري، وظنّ أن سجينه هرب فارتاع لذلك أشدّ الارتياع، وفقد شيئاً كثيراً من صوابه وأخذ يجري يميناً وشمالاً في غير هدى، ويجري قدّام ووراء في غير وعي، ويسأل كل من يرى عن هذا السجين الذي خلا سريره منه، ولم يكن يجد لدى من يسأله جواباً فيزداد ارتياعه، ويسرع إلى عيادات الأطباء يقتحمها فإذا هم يخاصمونه وينهرونه ويطردونه فيخرج حائراً خائفاً أعظم الحيرة وأشدّ الخوف.

وأمضى في ذلك الارتياع وتلك الحيرة دقائق كانت عنده زماناً طويلاً مملاً مخيفاً، ثم عاد إلى مكانه الذي يجلس فيه حين يحرس سجينه فإذا هو يراه على سريره غير مستلقٍ عليه، وإنما هو جالس يتصفح كتاباً فيزعق بسجينه قائلاً له في غلظة: «أين كنت؟ ولماذا لم تعلمني حين غادرت سريرك؟ أتظن أنك حر هنا؟ اسمع، إنك سجين تحت الأمر».

وأخذ في تعنيفه إياي مُلحّاً فيه حتى نَفِدَ صبري عليه وصرخت فيه: «اسمع، إما أن تتأدب وإلا شكوتك إلى مدير

الأمن العام نفسه! إنك أنت المهمل الذي غفل عن واجبه».

ويظهر أن زعيق الشرطي وصل إلى سمع الدكتور حسني الطاهر فأقبل يتقصَّى مصدره، وسمع بعض كلام الجندي وردي عليه فثار الطبيب وعنَّف الجندي، وهدده برفع أمره إلى مرجعه ليؤدبه على سوء أدبه وعلى إزعاجه المرضى واقتحامه عيادات الأطباء وهم يفحصون النساء، فخاف وأخذ يعتذر للطبيب ولي أيضاً.

وقصصي مع هؤلاء الجنود الذين يتغيرون بين اليوم والليلة اثنتي عشرة مرة كثيرةٌ، في بعضها ما يزعج، وفي بعضها ما يسخط سخطاً هادئاً.

كنت ذات مرة أتوضأ وأسبغ الوضوء فإذا الجندي ينهرني على إسباغ الوضوء، ويصيح بي حتى أنتهي من الوضوء سريعاً، لأنه ليس عبد أبي حسب تعبيره، ولم أجبه، فإذا ممرضة كانت على مقربة منا تسمع وترى ما يجري فصاحت بالجندي: «اخسأ يا هذا؛ لماذا تصيح به، أأنت في الشارع؟ إنك في مستشفى فيجب أن تتأدب وألا تزعج المرضى، ويجب أن تحترم الناس ولو كان سجيناً تحرسه، هل أنت مأمور بالتطاول على من تحرسه!».

فظن الجندي أن الممرضة قد تطاولت على الحكومة فزجرها، فإذا هي تزداد سخطاً عليه وغضباً، ويسرع إليها بعض الممرضات والممرضين ويشتبكون معه في خصام عنيف، ويسرع أحدهم إلى الدكتور بشير الرومي ويخبره بسوء

أدب الجندي فيحضر، فخاف الجندي، ولكن الدكتور بشير الرومي قال للجندي: «أمن حقك أن تسبَّ السجين الذي تحرسه وتسبَّ الممرضات وتزعج المرضى؟» وكلم تلفونياً «مفوض المركز» المسؤول عن الجنود، فحضر وأحضر معه جنديين، جعل أحدهما مكان ذلك الجندي الذي بعثه في حراسة الجندي الآخر ووعد بعقابه، وأوصى كل من يتولى الحراسة بحُسن الخلق!.

وزارني في ذات مرة الصديق الأستاذ حسين نظيف وهو أديب ظريف وكاتب ساخر فكه، ومعه الصديق محمد خياط، فمنعهما الشرطي ثم سمح لهما فعجبت، وسألتهما: «كيف سمح لكما بالزيارة؟» فأجاب الأديب الظريف: «ألجمتُ فاه لا ينطق!» قلت: «وكيف؟» قال: «سألته أتدخن؟ فأجاب: نعم، فأفرغت ما كان بعلبتي من الدخان في علبته فسمح!».

قلت: «لو كان الحارس واحداً لاستطعنا أن نشتريه، أما وأنه يتغير كل ساعتين فإن من المتعذر أن نسيطر عليهم ونشتري كل هذا العدد الذي لا يُحصى».

وحمل الصديقان الكريمان بُشرى سارّة، فقد بشّراني بأزوف ساعة الإفراج عني، فقلت: «إن شاء اللّه».

وكانت حياتي بالمستشفى طيبة برغم غلظة بعض الجنود، فقد كان إخوتي وأمي يزورونني، كما كان الأصدقاء والزملاء يترددون عليّ.

كانت حياتي بالمستشفى مريحة تجري رخاء، وإن كانت

الريح تجري - أحياناً - بما لا تشتهي السفُن، فإذا سلمتُ من فظاظة الجنود لم أسلم من مزعجات أشد وقعاً على النفس، تلك هي أنّات المرضى، ولقد مات على السرير المجاور لسريري أكثر من ثلاثة مرضى، وما سألت عن مرضهم فالجهل به خير، وفي الغفلة حصانة.

وآخر مريض مات على ذلك السرير شاب قرأت الورقة المعلقة على عمود سريره أن مرضه السل، وكنت قبل أن أعلم بدائه ألاطفه وأناوله بعض الفاكهة، وأصب له الماء إذا عطش في كأس خاصة به، فلما علمت بمرضه لم أقطع عنه الملاطفة من بعيد، وإذا أردت أن أعطيه شيئاً كلفت الممرض.

وفي آخر يوم أو ليلة له في الحياة كان في نَزْع شهدته وهو يعاني سكرات الموت، وأشار إلي يريد ماء فصببت له في كأسه قليلاً من الماء وأخذت أُرشفه إياه حتى لفظ أنفاسه بين يديّ.

وقلت للدكتور حسني: «أليس لديكم غرفة أو عنبر خاص للمرضى ذوي الأمراض الخبيثة أو المعدية؟» قال: «هنا نضع المشبّه في أمرهم فإذا تأكدنا من المرض نقلناه إلى مكان آخر».

ولست أنسى مريضاً هندياً كان ينام على سرير يبعد عني حوالى أربعة أمتار، وكان الوقت ليلاً فقد مضى منه ثلثه، ونام المرضى إلا أنا وهذا الحارس وذلك المريض الهندي

الذي كان يئن أنيناً، ويستغيث دون أن يسمع له أحد، وفهمت أنه يريد ماء، فطلبت إلى الجندي الحارس أن يسقي ذلك المريض فأبى؛ فاضطررت إلى أن أنهض وأمضي إلى ذلك الغريب المستغيث الذي زاد إلحاحه في الاستغاثة والاستسقاء، وأخذت له كأساً من ماء زمزم وقلت له بلغته: «هذا ماء زمزم المبارك»، فتهلل وجهه، ولما ذاق طعمه ابتهج وحمد اللّه حمداً، ثم نطق بالشهادتين وأسلم روحه وعلى فمه ابتسامة رضا، لأنه مات في الأرض المقدسة؛ في أرض الحَرَم.

وذات ليلة كنا نحن المرضى نتسامر، وكان بالعنبر حاج سوداني مريض لا حراك به منذ يومين، وبينا نحن المرضى في سمرنا نهض السوداني وجلس على سريره، ثم وقف، ثم مشى كأنشط ما يكون الصحيح، وخرج من باب العنبر، ثم عاد مسرعاً إلى سريره واستلقى عليه وهتف بصوت سمعناه: «لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه»، ثم أسلم الروح، رحمه اللّه.

ما أكثر ما كنت أضيق بالمستشفى، فمناظر الموتى من المرضى كانت تفزعني وتؤذيني، وأنين المرضى كان مؤلماً، وروائحهم مؤذية، ولكن هذه الحياة مع كل ذلك خير من حياتي في المنطقة، ففي المستشفى راحة وشيء من الحرية، ويزورني أهلي وأصدقائي، ويطيلون الجلوس إليّ، فأجد في ذلك راحة ومسرّة.

وشُفيت من المرض بعد بضعة أيام، ولكن الدكتور

حسني الطاهر كان يكتب كل يوم تقريراً يوقّعه هو وبعض زملائه الأطباء، يذكرون فيه لمدير الأمن العام أن حالتي الصحية تستدعي البقاء بالمستشفى، وكان مدير الأمن العام يحيط الأمير فيصل نائب جلالة الملك في الحجاز علماً بما يقرر الأطباء فيوافق على بقائي بالمستشفى.

وكانت حياتي اليومية بالمستشفى خالية من الضيق إذا استثنيت منظر الموتى من المرضى وأنينهم وروائحهم، فكنت أستيقظ فجراً وأصلّي ثم أقرأ شيئاً من القرآن، ثم أتناول الفطور الذي يحضره أهلي.

وكان المستشفى يقدّم للمرضى الطعام، ولكني ما كنت آكل منه، بل يأتيني أكلي من أهلي، وأحياناً من بعض أصدقائي أو أقربائي.

وكان فطوري خبزاً وحليباً وهريسة وهي قمح مطبوخ باللحم ويُحلَّى بالسكر ويُصبّ عليه قليل من السمن البلدي، وفي بعض الأحيان الفول بدل الهريسة، وأحياناً المُطَبَّق وهو يُصنع من رقاق يحوي لحماً مفروماً وكراثاً وبيضاً ويُقلى بالسمن، وهو نوعان أحدهما الذي مضى ذكره، والآخر حلو يحوي بدل اللحم المفروم والكراث والبيض جبناً معجوناً يُخلط بالسكّر، وأحياناً بدل الجبن موز ناضج يُقطَّع دوائر خفيف ويرش عليه السكر.

أما الغداء فكا أرُزّاً، وبضعة ألوان من اللحم والخضروات، وكذلك كان العشاء.

ومن أجمل السويعات التي مرت بي في المستشفى زيارة الدكتور حسني الطاهر، فهو إنسان تفيض على المرضى إنسانيته، فإذا جاءني قضى معي ساعة نتحدث في الأدب بفنونه المختلفة وفي العلم والثقافة، وكان حديثه رائعاً مؤنساً.

ولم يكن أسلوبه في الكتابة والحديث سهلاً ممتنعاً رشيقاً وحسب، بل كان أسلوبه في الحياة ومعاملة الناس سهلاً ممتنعاً ورشيقاً.

ولقد لقيت منه الخير كله، فهو الذي نقلني من جحيم المنطقة إلى واحة المستشفى، وهو الذي أشرف على علاجي، واستبقاني أكبر مدة ممكنة في المستشفى، فقد أمضيت فيه خمسة عشر يوماً.

وعندما تقرر خروجي من المستشفى كتب الدكتور حسني الطاهر تقريراً وقّعه معه ثلاثة من الأطباء فيهم الدكتور بشير الرومي الذي كان طبيباً خاصاً بأسرة الأمير فيصل، وجاء في تقريرهم أنني مهدد بعودة المرض إلي إذا لم يكن الجو مهيأً للراحة، وأوصوا بضرورة ضمان الراحة لي.

وودعت الأطباء والممرضين والممرضات والمرضى، وغادرت المستشفى إلى إدارة الأمن العام، ومنها إلى سجن الفرن الذي يقع على بُعد خطوات من مبنى الأمن العام ومن المستشفى أيضاً.

إلى سجن الفرن

كان هذا السجن من قبل تنوراً للدولة العثمانية حين كان العثمانيون من الترك يحكمون الحجاز، فبنوا هذا التنور لخبز ما يحتاج إليه الجند وأهل مكة من الخبز، وكانت هناك أفران أهلية.

وكان أهل مكة إلى أوائل العهد السعودي يصنعون خبزهم في بيوتهم، فكان النساء يعجنَّ العجين في الليل ثم يجعلنه أقراصاً توضع على «قماش» مبسوط على لوح من الخشب، وفي الصباح يمضي الصبيان بلوح الخبز إلى الأفران الأهلية.

وتحوّل هذا الفرن الحكومي إلى سجن في عهد الحكومة السعودية، وهو سجن يقضي به المتهم أياماً على ذمة التحقيق حتى يصدر الحكم فيُطلق سراحه أو يُنقل إلى السجن العام يقضي به مدة العقوبة المحكوم بها عليه.

وتحوّل الفرن سجناً لقربه من إدارة الأمن العام ومن إدارة التحقيق التي كانت تسمى القسم العدلي، ومن المحكمة المستعجلة الأولى التي أنيط بها القضاء في حد المسكر والتعزير والديون اليسيرة التي لا تتجاوز المبالغ القليلة.

ويحتوي الفرن غرفتين: إحداهما مستطيلة يبلغ طولها عشرين متراً، وعرضها ثلاثة أمتار ونصف متر وطول الغرفة الأخرى سبعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار ونصف متر، ويفصل بين الغرفتين فناء مساحته مثل مساحة الغرفة الصغيرة، ونصف الفناء دكة والباقي ممر ينتهي بقليب حلو الماء مرفود من عين زبيدة التي تسقي أهل مكة المكرّمة وحجاج بيت اللَّه الحرام وعُمّاره، وأجرتها السيدة زبيدة زوج الخليفة العظيم هارون الرشيد.

وصحبني إلى سجن الفرن مديره وكان يسمى سليمان الخليفي، وأُوصِيَ بي خيراً.

وللفرن بابان: باب تدخل منه إلى فناء على يساره دكة بها غرفة كبيرة لمدير السجن وبعض الجنود، وبعد ثلاثة أمتار من الباب الأول باب ثانٍ هو باب السجن، وفيه كوة صغيرة يدخل منها السجين رأسه ليحادث زائره، أو يدخل الزائر رأسه إلى داخل السجن ليحادث سجينه المَزور.

وفُتِحَ باب السجن لي فدخلت ثم أغلق، وإذا بعض السجناء استقبلوني، ولم يكن أحد منهم يعرفني أو أعرفه، ورأوا شاباً أنيقاً نظيف الملابس، لا ينمّ مظهره عن إجرام، فرحّبوا بالقادم الجديد، وفرشوا له بساطاً فجلس عليه وردّ عليهم تحيّتهم بخير منها، وأخذ يلتهم المكان بنظرة سريعة، وطبيعي ألا يكون فيه ما يعجب لا منظراً ولا مخبراً.

وأخذ عدد السجناء المتطلعين إليّ يزداد، وأحاط بي

البارزون منهم وأخذوا يطيّبون خاطري ويشجعونني قائلين: لا تهتم بشيء، كل ما قُدِّر كائن، السجن للرجال، إلى أمثال هذه العبارات التي يرددها السجناء كلما استقبلوا زميلاً جديداً لهم تهدئة للخاطر، وتعزية للنفس؛ وحملاً له على التصبر والشجاعة وتسكين الروعات.

ولقد أنست بتلك الكلمات كما أنست بترحابهم، وارتحت إليهم وإلى وجوههم التي توحي بالسذاجة والحب، وأخذت أتفحص القوم وأشكالهم وهيئاتهم وبي حيرة النازح الغريب يهبط مكاناً بغيضاً فيفاجأ بأن من فيه كِرام لطاف طيبون.

وقدّم لي أحدهم سيجارة فتناولتها ووضعتها بين شفتيّ وأشعلها، وبعد تحية موجزة سألني في إشفاق عن اسمي وقضيتي التي زجت بي في السجن، فأجبته بأنني سجين سياسي، وذكرت لهم أنني قضيت خمسة أيام بسجن المنطقة الأولى، وخمسة عشر يوماً بالمستشفى - مستشفى أجياد - ولم يكن بمكة غيره، وإن كان هناك آخر يسمى مستشفى القَبّان ولا يتردد عليه المرضى، وهذا المستشفى هو دار أبي سفيان التي ذكرها الرسول صلى اللَّه عليه وسلم حين فتح مكة فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وبُني مكانها هذا المستشفى الذي كان به مستودع الصحة ومستقر المصابين بالأمراض المُعْدِية كما أظن.

أحد الزملاء السجناء وكان متعلماً وقارئاً، فلما سمع

اسمي حيّاني بحرارة وإعجاب وقال: «قرأت كتابك[1] وكنت أقرأ مقالاتك، وأعلم أنك سافرت إلى مصر في بعثة، فما الذي جاء بك من مصر ثم إلى السجن؟».

قلت: «متهم بأني كنت في مصر ضد الحكومة، وما كنت ضدها، ولكن الوُشاة رموني».

ثم أقبل شاب يدعى «أحمد مفتي» وكان مثل سابقه يعرف القراءة، وكان نظيف الثياب وقال لي: «هنا أربعة من المدينة، سجناء، ويظهر أنهم أُناس من طبقة طيبة، وأرى أن تنضم إليهم فهم أليَق بك من غيرهم من السجناء»، فشكرت له نصحه ورأيه، وانضممت إليهم، وكان أحمد مفتي معهم، فكانت مجموعتنا ستة.

دخلت الفرن في الضحى، ومضى الوقت إلى الظهر في الحديث حتى أذّن مؤذِّن الحَرَم الشريف للظهر فأدَّينا صلاته جماعة، وأمَّنا أحد زملائنا السجناء.

وبدأت أواني الطعام تُحْمَل إلى السجن من أهل السجناء وجاءت مائدة المدنيين وأحمد مفتي كما جاءت مائدتي، وكانت موائدنا أحفل الموائد بأطايب الطعام وأفخرها وأكثرها تنوّعاً، واحتللنا بأمر مدير السجن الغرفة الصغيرة، وبعد أن أكلنا زاد من طعامنا كثير.

---

(1) كان قد صدر لي كتاب سميته «كتابي» وطبع سنة 1354 هـ (1934)م. بمطبعة الحكومة على نفقة الأمير فيصل نائب جلالة الملك في الحجاز.

والسجن عالَم عجيب وغريب، فيه صنوف من البشر، فيهم ذوو اليسار، ولكن أكثرهم فقراء ما كانوا يجدون قُوتهم وهم طلقاء خارج السجن إلا بعد الكدح الناصب، فإذا سُجنوا لم يجدوا طعاماً، وما كان السجن يعطي طعاماً لهؤلاء فكانت موائد الموسَرين من السجناء تسع فقراءهم، إذ كان طعام الواحد من الموسَرين يكفي ثلاثة أو أربعة.

وكانت كل جماعة تتقاسم ما يأتي أفرادها من الطعام، وتوزِّع ما يزيد على فقراء السجناء.

كذلك كان الأمر بالنسبة للغداء والعشاء، أما الفطور فكانت سفرته واحدة يشترك فيها السجناء جميعاً، وإن كان الأشباه والنظائر يجلس بعضهم إلى بعض.

وبعد أن تناولنا العشاء وأخذنا في تناول الشاي دَخَلَ مدير السجن، وأخلى الغرفة الصغيرة من المدنيين وأبقاني بها وحدي، ومنع التحدث إلي، لأنه أُمِر بأن أكون في «السجن الانفرادي».

وكان مبنى هذا السجن يقع في جنوبه مبنى مطبعة الحكومة المعروفة بمطبعة أم القرى، وفي الشرق يقع مبنى مكائن كهرباء الحرم الشريف التي لا يقف دويّها من أذان المغرب إلى ما بعد صلاة الفجر.

وفي النهار تدوِّي مكائن مطبعة الحكومة من الصباح إلى ما بعد العصر إلا يوم الخميس فتدوي كل نهاره إلى منتصف ليلة الجمعة، إذ تطبع جريدة «أم القرى» الرسمية التي تصدر صباح كل جمعة.

فكان النوم شاقاً ليلاً ونهاراً، إذ لا يفصل بين السجن ومطبعة الحكومة والكهرباء غير حائط.

وبولغ في «السجن الانفرادي» فأغلق علي باب الغرفة، ومُنِعتُ من الكلام مع السجناء كما مُنِعوا هم من الكلام معي، ومُنِعت من القراءة فقد أُخِذَت الكتب والجرائد والمجلات التي كانت لديّ.

قضيت ست ساعات في غيابة محبسي الضيِّق حتى ضاقت النفس أشد الضيق، وكدت أختنق من الحر والرطوبة ودويّ مكائن الكهرباء ومن الروائح الكريهة المنبعثة من المراحيض التي بداخل السجن.

وكلّمت أحد السجناء وشكوت له ما ألقى، وطلبت إليه أن ينقل شكواي إلى مدير السجن فأبلغه الرسالة، ولبثت في محبسي الضيِّق اثنتي عشرة ساعة ثم جاء الجواب وفوجئت بدخول «مفوّض المركز» المسؤول عن السجن والسجناء، واسمه «يوسف جمال» وحيّاني تحية طيبة وجلس بجانبي وأخذ يتحدث إليّ حديث اللطف والمودة والاعتذار، وسمح لي بفتح الباب، ومنحني حرية الخروج إلى الميضأة، وأمر ببقاء الباب مفتوحاً، وسمح لي بالحديث مع السجناء.

أما مقابلة زوّاري فتتم وأنا جالس على عتبة باب الغرفة، هم يرونني وأنا أراهم، ويدور الحديث بيننا بالإشارة، وإذا أردت شيئاً طلبت إلى سجين فينقل طلبي إليهم فيحضرونه.

وهذا الذي حصلت عليه من الحرية ليس بالشيء اليسير بالنسبة لسجين مثلي، بل هو كثير.

وخُصّص لي سجينان للقيام بخدمتي، وكانا مخلصين طيبين، فما صادفت في سجني هذا إلا أناساً طيبين، وإن كان بينهم أناساً يفوقون كثيراً ممن تخدع مظاهرهم فيُظن فيهم الصلاح وهم شر الناس.

وكان البعوض في السجن كالمطر كثرة لا رحمة طبعاً، وكانت غرفتي مزدحمة بهذا البعوض المؤذي.

وعاودتني الحمى كأشد ما تكون الحمى حرارة وبغياً، وسكنت في عظامي بل باتت في عظامي - كما جاء في بيت المتنبي رحمه اللّه، وإذا كانت حمى المتنبي تزوره في الظلام فإن حماي ثقيلة ما تطاق وطأتها ولا تفارقني لا ليلاً ولا نهاراً.

وقضيت يوماً كاملاً والحمى تحرق جسدي المنهوك، ولقيت من هذه الحُمّى أشد العُسر والضنك، وشكوت إلى الحكومة ما ألقى، وطلبت السماح لي بإحضار ناموسية أتقي بها البعوض الذي كان سبب هذه الملاريا اللاهبة.

وأسرفت الحكومة في التسامح معي فسمحت لي بالناموسية ولكن لم يكن في الغرفة مسامير، فنظام السجن يقضي بمنع استعمالها، فحرت في استعمال النامونسية، وقد صدق الأقدمون حينما زعموا أن الحاجة أم الاختراع، فقد دفعتني الحاجة الملحّة إلى أن أخترع ما يحل لي هذه المشكلة العويصة.

كان في الباب حلقة وتقابلها نافذة مُسيَّجة بقضبان الحديد، فجمعت كل ركنين من الناموسية بخيط وعلقتها فكانت أشبه بالزورق المقلوب، وبذلك استطعت أن أنام نوماً هادئاً وعميقاً من شدة التعب والإعياء.

استطعت إلى النوم سبيلاً رغم اجتماع دوي مكائن الكهرباء ومطبعة الحكومة ودوي البعوض الذي سلمني اللّه من وخزه السام.

ولم يُسمَح لي بالكتب والصحف وصار الزمن كارباً وثقيلاً فشغلت نفسي بمراقبة شقوق الحائط وثقوب مصراعي الباب، واستطعت إحصاء كل ذلك حتى قضبان حديد النافذة وعدد مربعات القضبان المتقاطعة، وقد استظهرت كل ذلك ولم يَنُصْني[1] منه شيء.

قضيت في هذه الغرفة ثمانية أيام دراكاً، وجدارها كالحة وسقفها كاب فقد كان فرناً، وما يزال المبنى محتفظاً بالحرارة مع أن الفرن لم يعد يخبز فيه خبزاً أو توقد فيه نار.

قضيت فيها ثمانية الأيام وحيداً وإن كان بابها غير مغلق علي، ولكن لا أملك من الحرية ما يملكه زملائي السجناء، فهم يقابلون زوارهم ويتحدثون إليهم من خوخة الباب الكبير، أما أنا فلا أملك من هذه الحرية شيئاً، وهم يقضون أوقاتهم مجتمعين يتضاحكون ويمزحون، ويصل ضحكهم إلى حد القهقهة.

---

(1) ناص ينوص: فات.

أما أنا فوحيد محروم من الحقوق التي يتمتع بها زملائي السجناء الذين رثوا لحالي ووضعي.

كنت أعيش في عالم رحيب هو عالم الكتب، وهو أرحب من كوكبنا الأرضي المحدود، والكتب عالمي المفضّل، فإذا أنا سجين، ولم يكف السجن، بل أضيف إليه الانفراد، وأضيف إلى الانفراد وحشة الغرفة التي لا تصلح لسكنى الحيوان الأعجم بَلْه الإنسان المثقف المتمدن، يضاف إلى كل ذلك تحريم الكتاب علي، وفي تحريم الكتاب الويل والثبور.

ولولا زملائي السجناء لمللت الحياة أشد الملل، فهم عالمي وهم كل شيء بالنسبة لي، ويثلج صدري فكاهاتهم ونكاتهم ونوادرهم وتمثيل بعضهم وما يقصون من قصص، فأضحك معهم عندما يضحكون.

ولا شك أن حياة السجن شديدة الملل والضيق، فما تكاد تمر الدقائق إلا بصعوبة، أما الأيام فأثقل على النفس من الجبال.

ولو سمح لي بالكتب لما شعرت بذلك الملل القاتل والضيق الرهيب، ففي وسع الكتب أن تنقل الإنسان إلى عالم لا حد لرحابته.

ولما مُنِعت الكتب عني صرت أتسلى بالشقوق والثقوب ومربعات القضبان المكوَّنة من تقاطعها، وكان من مشاغلي وتسلياتي مراقبة جماعات النمل وقوافلها التي لا تمل من

الذهوب والمجيء، وطالت مراقبتي لها حتى وقفت على كثير من أسرار حياة النمل.

كنت أضع في طريق القوافل عوداً غليظاً لأرى ما تصنع، فإذا القافلة تقف ويعود بعضها في سرعة ينقل إلى مؤخرة القافلة نبأ قطع الطريق، فإذا زال الخطر عادت نملة بالنبأ فتعود القافلة إلى المسير، فإذا لم يزُلْ الخطر عادت القافلة وغيرت طريقها بعد أن يكشفها رُوّاد لتسلك الطريق الآمن.

وما أدري سبباً لمنع الكتب عني، إن الذين منعوها عني لا يعرفون قيمة الكتاب حتى يعذبوا قارئاً مثلي بمنعه عنه، وأحسب أنهم منعوه عني لأني متهم سياسي، وعندهم السياسي يستطيع أن يستخدم الكتاب في إرسال رسائل سرية لا يفهمونها، فهم - لهذا - يمنعون الكتب عن مثلي، لأني سياسي كما يظنون.

وكان عند بعض السجناء كتب، فمنعوهم من إعارتي إياها، ثم أخذوها منهم وحفظتها إدارة السجن في ما يسمونه الأمانات.

وفي اليوم الذي قضيته بهذه الغرفة الموحشة الكئيبة وحيداً كالميت في قبره فوجئت بطائر صغير ينقضُّ من بين القضبان إلى داخل الغرفة فيصيبه الذعر فيرتد في سرعة البرق من منظر هذا الإنسان القابع في جانب من تلك الغرفة.

لقد أشفق «أبو العلاء» من منظري وهرب، ولست أقصد

شاعرنا الكبير أبا العلاء فقد مات منذ ألف سنة، وانحلّ كيانه إلى تراب، وحرره الموت من محبسه أو من محبسيه: العمى والغرفة التي كان يسكنها وإنما أقصد ذلك العصفور الصغير الذي يسميه أناس من أهل مكة المكرمة «أبو العِلا» بكسر العين، واسمه «الوَضْع» وهو طائر أصغر من العصفور، وفي الحديث: «إن إسرافيل ليتواضع لله عز وجل حتى يصير كأنه الوَضْع».

من حق «أبو العِلا» أن يرتد هارباً من غرفتي بسجن الفرن، فقد ألِف الحرية والانطلاق، كما ألِف الحركة الدائبة، وأظنه ضَلّ الطريق فلما أدرك ضلاله عاد من حيث دخل منطلقاً إلى فضاء اللّه يطير فيه حراً طليقاً.

الحرية هي الحياة، وإلا فإن الحياة تفقد حقيقتها عندما تغيب عنها الحرية، ولهذا خلق اللّه الإنسان حراً لا يستعبد لغير خالقه، ولكن، خُلِق الإنسان كفوراً، فكفر بنعمة اللّه وسلب حرية أخيه الإنسان وأذلّه، ومنذ خرج أبونا آدم من الجنة وهبط إلى الأرض بدأ الصراع والقتال، وسلب بعضهم حرية بعض كما سلب بعضهم حق بعض، وما زال الأفراد والجماعات والدول يعتدي بعضهم على بعض، وشرّ العدوان هو العدوان على الحرية.

وعقوبة السجن لا أنكرها فقد أقرّتها الديانات والشرائع للزجر والتأديب والعقاب، والحجر على حرية من لم يحتفظ بحريته ضرورة وفريضة في بعض الأحيان، وليس إقرار

الشرائع للسجن معناه التعذيب، ورسول الإسلام صلى اللّه عليه وسلم قال: «إذا قتلتم فأحسنوا القتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» وقياساً على ذلك يقال: «إذا سجنتم فأحسنوا السجنة».

وأنا، ما جريمتي التي تبيح الحجر على حريتي؟

لا أعلم أن هناك ذنباً اقترفته أستحق عليه أن أفقد حريتي ويواريني السجن خلف بابه.

على أي حال، سيظهر الحق ذات يوم، وستُرَدُّ إليَّ حريتي المسلوبة عاجلاً أو آجلاً.

فلأصبرْ حتى يأذن اللّه لي بهذه الحرية، وإذا لم أصبر فما العاقبة؟ وتذكرت هنا بيت المتنبي:

وللواجد المكروب من زفراته

سكونُ عزاء أو سكونُ لغوب



في سجن الفرن

طلبت من إدارة السجن السماح لي بمصباح أستضيء به وأستعينه على وحشة الغرفة التي تزيدها الظلمة وحشة وكآبة فأبت، والسبب كما زعموا الحرص على حياتي، إذ خافوا أن أنتحر بسكب الغاز على أثوابي وإحراق نفسي، فشكراً لهم على هذا الشعور الطيب والغيرة على حياتي.

وذات ليلة من هذه الليالي السود وأنا مستغرق في نوم عميق بغرفتي وناموسيتي منصوبة على شكل زورق مقلوب - كما ذكرت هذا التشبيه في الفصل السابق - فوجئت بجَلَبة عند رأسي، والسجّان يوقظني، فصحوت من نومي مرعوباً، وظننت أنني مطلوب في هذه الساعة من الليل للتحقيق، وعندما استيقظت أبصرت تسعة رجال أُدخلوا غرفتي، وأبصرتهم من ناموسيتي دون أن أخرج منها، وحُشِروا بها - والضمير إلى الغرفة لا الناموسية، فهي لا تسعني إلا بصعوبة.

وكان تسعة الرجال من ذوي البسطة في الجسم، ويدل مظهرهم على النعمة واليسر، وسمعت أحدهم ينادي صاحباً له قائلاً: «يوسف».

وحيّيتهم وأنا ما أزال في ناموسيتي، وسألتهم: «مَنْ تكونون؟» فأجابوا: «من جُدَّة»، قلت: «فما الذي أتى بكم إلى هذا المكان وأنتم - كما تدل مظاهركم - من كِرام الناس؟».

قالوا: «متهمون بقتل إنسان!».

قلت: «إن مظهركم يدل على النُّبل والبراءة، وأعتقد أنكم أبرياء».

فسألوني: «مَن تكون أنت؟ وما قضيتك؟».

فذكرت لهم اسمي وقضيتي، وقصصت لهم كل قصتي، فقال أحدهم: «سمعت في جدة خبرك وقد تأثرنا بما حدث لك».

وكان المتحدث أحد أعيان جدة، وسبق أن نُفي إلى الرياض في أمور سياسية.

ولم يكن معهم فراش، ولم يستطع أهلوهم بجدة اللحاق بهم ومعهم الفُرُش، كما أن معارفهم بمكة لم يكونوا على علم بهم وإلا لحوّلوا الفرن إلى غرفة استقبال فخمة، وقد أُخِذوا على غرة كرهائن حتى يظهر القاتل.

وكان على فراشي «شرشف» فأعطيتهم إياه كما أعطيتهم البساط الذي كان تحت فراشي فشكروا لي صنيعي.

وسأل بعضهم بعضاً عن دخان فلم يجدوا منه شيئاً عند أحد منهم، فدفعت إليهم ما كان عندي منه فسُرُّوا، وطلبت لهم من زملائي السجناء دخاناً فقدموا لهم دخاناً كثيراً.

وتركتهم وعدت إلى نومي، وصحونا فجراً مع أذان

الحرم، وصلّينا جماعة، وظهرت وجوه بعضنا لبعض، وإذا تسعة الرجال من أعيان جدة أُخِذوا رهائن حتى يظهر القاتل.

وحضر أخ لي بفطوري، فطلبت إليه أن يحضر لنا مُطبَّقاً يكفي عشرة أشخاص، وكان قرب السجن «مطبقاني» فأحضر أخي ما طلبت، وأفطرنا جميعاً والحمد لله على نعمائه.

وأمضينا النهار في الحديث، وشعرت بالراحة من الحرية التي نلتها بسبب سجناء جدة، مضى النهار لم أحس فيه بالضيق، ونسيت ما أنا فيه من كرب، فقد شغلنا الحديث والاجتماع عما نحن فيه.

وأقبل الليل وتناولنا عشاءنا ثم بدأ السمر، وكان أحد سجناء جدة يدعى «السقّا» وكان ظريفاً لطيفاً خفيف الروح، وله أسلوب رائع في الحديث، ولهجة ساخرة خلابة، وأخذ «السقا» يقصّ علينا قصة ممتعة، زادها أُسلوبه الساحر روعة وإمتاعاً.

وكانت ليلة مرحة عمّت السجن كله، ولم نحسّ إلا والليل قد انتصف، واستعددنا لمضاجعنا، وجاء دور ناموسيتي التي تُنصَب كالزورق المقلوب فلم تسلم من تعليقات «السقا» المرِحة اللطيفة، فكانت ناموسيتي خاتمة مطاف السهرة الممتعة والضحكات المرحة، وكم في السجن من مرح وضحك!

انقضى الليل بسلام وتبعه النهار، وكان كل شيء في السجن على حاله، لم يجدَّ جديد، فسجناء جدة لم يُطلَب

منهم أحد، وضاق السجن بمن فيه أشد الضيق، فغرفتي مشغولة بي وبتسعة الأفراد القادمين من جُدة، والغرفة الأخرى الطويلة أخليت من ساكنيها من السجناء وأُدخِل فيها شاب حضرمي أحضروه من جدة مشتبهاً فيه بحادث القتل، فامتلأ فناء السجن بالسجناء.

وبعد أن صلّينا العِشاء وتناولنا العَشاء طُلِب خمسة من سجناء جدة للتحقيق، كما أُخذ ذلك الحضرمي، الشاب، وساد السجنَ صمتٌ رهيب، وكان كل من فيه يدعو اللّٰه أن يحق الحق ويزهق الباطل، ودعونا اللّٰه أن يُظهر القاتل، ويبرئ الأبرياء.

وبينما نحن في صمتنا ووجومنا فوجئنا بباب السجن يُفتَح وينفُذُ منه إلينا مدير السجن واتجه إلى خمسة الباقين من أهل جدة وقال لهم: «البشارة، أبشروا، إنكم جميعاً أبرياء، والقاتل ذلك الحضرمي، لقد اعترف بعد أن ضَيّقت عليه وعذبته، اعترف بالقتل وبيَّن سببه وكيف قتله!»

وطلب الأربعة من مدير السجن أن ينتظر البشارة بعد عودة رفاقهم الخمسة.

ولم نستطع نحن السجناء كتمان فرحنا لظهور براءة هؤلاء الرجال وأخذنا نهنئهم ونشكر اللّٰه على ما أنعم عليهم بالبراءة، وفاض البِشْر على الشفاه، وائتلقت على الثغور البسمات.

وأقبل الخمسة إلى رفاقهم وجمعوا مبلغاً من المال

أعطوه إلى مدير السجن كما نفحوا سائر جنود السجن، وتركوا لفقراء السجناء بعض النقود وكل ما أُهدِيَ إليهم من سجائر وشاي وسكر.

وكان بعض أهلهم ورفاقهم قد وصلوا إلى مكة المكرّمة، فلما علموا ببراءة التسعة المتهمين واعتراف الحضرمي سُرُّوا وأحضروا سيارات حملتهم هم ورفاقهم التسعة الذين ودَّعوني وهم يدعون لي.

وعاد إلينا مدير السجن وطلب إلي أن أغادر غرفتي وأجمع فراشي لأن القاتل سيحلّ بالغرفة فتركتها سريعاً، وجيء بالقاتل مثقلاً بالقيود والأغلال وأدخلوه الغرفة التي وُضِع على بابها حارسان مسلَّحان حتى يذهبوا به إلى جدة ويُعدَم بها على مشهد من أولياء القتيل.

ومكث القاتل بالغرفة ليلته ونهاره، وقُبَيل العصر وضعوه في سيارة شُدِّدت عليها الحراسة من قِبَل مدير السجن نفسه وبعض الجنود الأشداء، وسبقتها سيارة مدير الأمن العام إلى جدة ليشهد تنفيذ حكم الإعدام في القاتل.

خلت الغرفة فأدركت أنهم سيعيدونني إليها، وقد صدق حدسي، فما كاد مدير السجن يعود من جدة بعد تنفيذ حكم الإعدام حتى جاء إلينا، وأمرني بأن أعود إلى غرفتي المشؤومة، ورجوته أن يسمح لي الليلة بقضائها خارج الغرفة فأصرّ وعاند، فلم أملك غير الامتثال، وهل يملك السجين غير الطاعة العمياء لسجّانه؟ وعدت إلى غرفتي مُكرَهاً،

وآلمني أن يتحكم فظ غليظ في القِيَم الإنسانية، ويملي إرادته على من لو كان حراً لما وسعه إلا احترامه، وما أروع العقّاد إذ يقول:

ويا ربَّ مرهوبِ السُّطا وهْو مُطلَقٌ
إذا كُفَّ أضحى متعة للنواظِرِ

لقد صدق العقّاد، فعندما يكون الأسد في قفصه بحديقة الحيوان يكون متعة للأنظار ومسلاة الأطفال، فإذا كان حراً طليقاً تحاماه الأبطال!!

وما يبتلي اللَّه إنساناً بمصيبة إلا رزقه الصبر عليها، وهذه نعمة من اللَّه ومكرمة، فقد دخلت الغرفة كارهاً وبسطت فراشي ونصبت ناموسيتي وقرأت كعادتي آية الكرسي ووضعت رأسي على الوسادة فإذا النوم ينقلني إلى عالمه في لحظات.

وكان هذا من فضل اللَّه علي، إذ لو لم يهب لي النوم لأقضَّ مضجعي أنني أنام في مكان قاتل وقع عليه القصاص.

وما أكثر ما في السجن من أكدار ومنغّصات ومضايقات وإهانات يتعمّدها السجّانون الألى تحجرت قلوبهم، بل هي أشد من الحجارة قسوة، لأن من الحجارة ما يتفجر بالماء، وقلوب السجانين لا تعرف الرحمة مع أن لهم أولاداً وأحفاداً وآباء وأمهات وإخوة وأهلاً.

وهكذا كنت أقضي الأيام والليالي منذ سجنت بالمنطقة حتى انتقلت إلى سجن الفرن، وما كنت أفصح لأهلي حتى لا أحزنهم بما يصيبني من الأذى والمكروه.

وكتبت رسالة للشيخ محمد سرور الصبان استطعت تهريبها إلى خارج السجن أذكر له ما ألقى في السجن الانفرادي الذي لا موجب له.

وأثمرت رسالتي هذه، فقد اتصل الشيخ الصبان بمدير الأمن العام وأبلغه أنه علم بأنني في السجن الانفرادي ورجاه أن يعيد إليّ بعض حريتي المقيَّدة، وأن يسمح لي بقراءة الكتب والصحف؛ وبالكتابة.

وجاءني مفوَّض المركز يوسف جمال وأبلغني بإلغاء السجن الانفرادي، وبالسماح لي بالقراءة والكتابة ومقابلة زائري في غرفة مدير السجن التي تقع خارج باب السجن.

وشعرت بطعم هذه الحرية وإن كانت مقيَّدة، فبعض الشر أهون من بعض.

وتركت محبسي الضيِّق الانفرادي إلى سعة شعرت بأنها عالَم رحب لا تُحْصَى فيه عليَّ أنفاسي، وأعيدت إليَّ حريتي في الحديث علانية إلى زملائي السجناء. والتنقُّل في مجالسهم والتحدث إلى من أشاء منهم ومن الزائرين، كل ذلك بفضل اللَّه سبحانه وتعالى ثم بفضل الشيخ محمد سرور الصبان مدّ اللَّه في عمره.

وما كاد أقاربي وأصدقائي يعلمون بهذه الحرية حتى أسرعوا فُرادى وقُرانى لزيارتي، وكانت عادة زوّار السجناء أن يصحبوا معهم بعض الهدايا كالسجائر والفواكه، ويعدون بإحضار الطعام.

وكان أشد الأصدقاء فرحاً بهذه الحرية التي أتيح لي أن أتمتع بها الصديق محمد بك خياط، فقد عودني أن يكون أول المهنئين لي إذا نجحت، وأول المعزِّين لي إذا أصابني مكروه، فحيّاه اللّه.

وكنت أسعد بزيارته كل يوم بضع ساعات يحدثني في أخبار الأدب والأدباء، ويصحب معه زملاءنا وأصدقاءنا من أدباء الناشئة فتُعقَد الندوات الأدبية، وكان يحضر إليّ بعض الجرائد والمجلات المصرية.



رسالة إلى الأمير فيصل

عندما سجنت في المنطقة الأولى ثم نقلت إلى المستشفى كتبت إلى الأمير فيصل رسالة هذا نصها:

إلى حضرة صاحب السموّ الملكي الأمير العظيم فيصل

نائب جلالة الملك المعظَّم أيّده اللّه

سلام اللَّه عليكم ورحمته وبركاته

وبعد: فإنني أكتب إلى سموِّكم من المستشفى الذي انتقلت إليه بأمركم للعلاج من الملاريا التي أُصبت بها كما علمتم من سجن المنقطة الأولى.

أيها الأمير العظيم

يقول شاعر العرب الأكبر المتنبي لسيف الدولة وأنا أستعير في هذا الموقف قوله:

أزِلْ حَسدَ الحسّاد عني بكبتهم

فأنتَ الذي صيَّرتَهمْ ليَ حُسَّدا

رأى الحساد رعايتكم إياي فأكل قلبهم الحسد مقروناً بالحقد، فما أكثر مكافآتهم لي عندما كنتم تزورون المعهد العلمي السعودي الذي أسسه والدكم العظيم، فكنت أجيب على أسئلتكم، وكنت ألقي في الاحتفاء بكم شعراً أو نثراً.

وقد طبع لي سموّكم على نفقتكم مؤلَّفي المسمى «كتابي» وفوق دفعكم نفقات طبعه من مالكم كافأتموني بمنحة مالية كبيرة.

وعندما انتهيت من الدراسة بالمعهد وتخرجت منه رفعت إلى سموِّكم كتاباً أنكر لكم فيه أنني من عُشّاق العلم والمعرفة؛ وأرغب في المزيد منهما، وليس في الحجاز كلية أو جامعة أو معهد أعلى من المعهد العلمي السعودي ورجوت بعثي إلى مصر لأدرس بإحدى كلياتها فاستجبتم لرجائي، وأمرتم مديرية المعارف العامة بابتعاث بعثة لتلقّي العلم في مصر، وأكدتم بأن أكون من أعضائها.

وأنشئت البعثة بسببي وسافر أعضاؤها وكنت أبرزهم على الإطلاق، فكنت أدرس مع بعض أعضاء البعثة بكلية دار العلوم العليا منتسباً، وفي كلية الآداب بجامعة الملك فؤاد مستمعاً، وبمدرسة تحسين الخطوط الملكية بعد العصر.

وكنت مساءً أحضر بعض المحاضرات والندوات وكنت أنا من المحاضرين، وأكتب في المجلات والصحف المصرية الكبيرة مثل مجلة «السياسة الأسبوعية» وجريدة «البلاغ».

وتفوّقت في الدراسة على كل زملائي، وصارت لي صلات بزعماء الأدب الحديث وببعض علماء الأزهر مما جعل بعض زملائي يحسدونني ويحقدون عليّ.

وسموّكم أرفع من أن يصدق الوشاة الحاسدين، بل يعرف سموّكم صدق إخلاصي الذي لا يتفق معه ما نُسِب إلي من أنني

كنت أكتب في صحف مصر ضد حكومتي، ولم يثبت هذا الاتهام ولا غيره في التحقيق.

وسموّكم في غير حاجة إلى برهان يثبت إخلاصي وولائي، فمؤلَّفي المطبوع على نفقتكم يكذِّب كل اتهام، ويثبت إخلاصي بما لا يدع مجالاً لمفترٍ يريد أن يعكّر الماء ليصطاد فيه انتقاماً مني.

وأطلب مواجهتي بالوشاة أياً كان شانهم، وأرجو أن تكون المواجهة بمجلسكم، لأن اللّه قد وهب لكم من الفطنة والعبقرية ما يظهر لكم الحق.

واختم رسالتي هذه ببيت أبي الطيب المتنبي:

أزِلْ حَسدَ الحسّاد عني بكبتهم

فأنتَ الذي صيَّرتَهمْ ليَ حُسَّدا

ولسموّكم أصدق التحية والولاء من السجين المظلوم.

(التوقيع)

أحمد عبد الغفور عطار

وحمل أخي حسن الرسالة وقابل سموّه بدار النيابة وأسلمه إياها وقرأها سموّه، ثم وعد أخي خيراً.

وقال له أخي حسن - وهو أكبر إخواني وأعلمهم وكان مثقّفاً يجيد بضع لغات -: «هل نبرق لجلالة الملك المعظَّم ونسترحم من جلالته إطلاق سراح أخي؟»

فأجابه الأمير فيصل: «لا، لا تبرقوا لجلالة الملك، فأنا سأنهي الأمر بمشيئة اللّه».

فعاد إليّ أخي وأخبرني خبر مقابلته للأمير فيصل أيّده اللَّه وجزاه عنا خيراً ومدّ في عمره.

وبعد يومين أو ثلاثة علمت أن سموّه سافر إلى «سَجا» في إجازة قصيرة.

وطمأنتني هذه المقابلة، وعلقت على عودة سموه آمالي في الإفراج عني.

ولم يكن بد من أن أقضي بالسجن الأيام التي قدَّر اللَّه عليّ قضاءها، وأحمده حمداً كثيراً أن أزال عني كثيراً من القيود، وأعاد إليّ كثيراً من حريتي.

فلأنتظر عودة الأمير فيصل بشوق لا مزيد عليه، ففي عودته الفرج بمشيئة اللّه، ولأعُدْ إلى تدوين ذكرياتي بسجن الفرن حتى يأذن اللَّه ثم فيصل بالإفراج عني.



حكومة من السجناء

السجن دنيا، ولكنها ضيِّقة ومخيفة ومؤلمة، وتختلف عن دنيا البشر كل الاختلاف، فدنيا البشر لا تخلو من السعادة والفرح والبهجة، وإن كان فيها شقاء وحزن واكتئاب، ولكن الحرية التي تتمتع بها دنيا الطلقاء تجعل الحياة جديرة بأن يَحْيَوْها.

أما دنيا السجن فليس فيها غير الآلام والشقاء، وتكفي «مصادرة» الحرية، ومع كل ذلك تجد فيه الضحك والسرور والأمل، فأنَّى يكون أناس يكون أمل وضحك، لأن النفس الإنسانية تضحك وهي في أشد حالات الاكتئاب، وأعظم ما يميز الإنسان وصفه بأنه حيوان ضاحك، لأنه الوحيد الذي يضحك في عالم الحيوان.

وما دام السجن دنيا، فلا بد أن يكون فيها بنسبتها بعض ما في دنيا البشر من شعوب وحكومات، وإن كان ذلك في حدود غاية في الضيق، لأن أي مجتمع أو جماعة مهما يقلّ عدد أفرادها في حاجة إلى رئيس أو رؤساء يصرفون أمور الجماعة.

وفي سجن الفرن ما يشبه الحكومة والشعب، ولكن

الحكومة لا تنفّذ أحكامها إلا في ما يتفق مع الحَجْر المضروب عليهم، فإذا حُكِم على أحد بالعقاب فلا يتجاوز القطيعة أو الغرامة المحتملة أو تنظيف غرفتي السجن أو الدكة، أو غسل الممر والدكة؛ وإذا اشتدت العقوبة فغسل المرحاض، وهذه العقوبة على الطبقة الدنيا من السجناء، فالسجن يعترف بالطبقات ويعترف بفوارق الطبقات.

ومتوسط تعداد سجناء الفرن خمسون؛ فإذا ارتفع العدد لم يتجاوز الثمانين، وإذا هبط لم ينزل عن الأربعين، ومنهم يتكون الشعب والحكومة، وطبيعي أن أفراد الحكومة من البارزين والموسَرين.

ومن الظريف ذكر أقسام الحكومة، ونبدأ بقسم الاستقبال والتحقيق، فعندما دخلت الفرن كان هذا القسم مكوَّناً من أربعة أشخاص، أحاطوا بي دون غيرهم، واستقبلوني بحفاوة بالغة، وذلك عملهم مع كل وافد جديد إذا كان من ذوي اليسار أو العلم.

ويصحب الاستقبالَ تقديمُ الشاي والسجائر إذا كان من المدخنين، وبعد عبارات الترحيب يبدأ الشق الآخر من عملهم وهو التحقيق.

يسألون عن الاسم والقضية، ويمضون في التحقيق حتى إذا انتهوا من الإحاطة بالقضية بدأوا بالإرشاد والنصح، وذكروا أسماء المحققين الرسميين، والطيب منهم والخبيث، والسهل والخشن، ومن يمكن شراء ذمته.

سألوني عن اسمي فأجبتهم، ثم سألوا عن قضيتي وعن تاريخ القبض عليّ، وما جرى في التحقيق معي، وما التهمة أو التُّهَم التي وُجِّهت إلي، وماذا قلت في التحقيق؟

وأخذوا يستنبطون من أجوبتي أسئلة وجّهوها إليّ، فأجبتم حتى انتهى تحقيقهم الدقيق؛ وعرضوا علي العون في كل ما أحتاج إليه.

وكان على مقربة من هؤلاء الأربعة شاب في الخامسة والعشرين يسترق السمع، ويكاد لا يفوته شيء من الحوار بيني وبين أعضاء لجنة الاستقبال والتحقيق، ومهمة هذا المسترق للسمع مهمة الإذاعة والصحافة، ينشر بين السجناء ما يسمع، ويزوِّدهم بالأخبار، وهو الذي يستنشق الأخبار خارج السجن وينشرها في داخله.

ثم إدارة المالية، ويقوم بها اثنان أمينان، يُنتخبان من السجناء، ومهمتهما تنظيم الدخل والصرف، وإرباء الدخل بطرق سليمة.

وطبيعي أن يكون الإنفاق لمصلحة السجناء عامة، مثل شراء المكانس، أو مساعدة الفقراء والغرباء ممن لا أهل لهم كالأجانب، فيُنْفَق على طعامهم وشرابهم، وما كان الشراب غير الشاي، وقد يكسوان المعدم.

ودخل «المالية» مما يجمع من السجناء، وكل سجين يقدّم ما يطيق، ويضاعف على الموسر، وقد شاركت يوم دخولي بخمسة ريالات، وعندما تحررت من السجن

الانفرادي وسُمح لي بالقراءة والكتابة تبرعت باثني عشر ريالاً.

وهناك دخل كبير يتكوّن ممن يُفرَج عنهم، وهؤلاء يتبرعون لزملائهم بكل ما لديهم من سكَّر وشاي وسجائر وفاكهة ومعلّبات، وقد يتبرع بعضهم ببعض البسط وسجاجيد الصلاة وببعض النقود.

وهناك مجلس شورى، وأعضاؤه من العقلاء، ولا يشترط في عضو مجلس الشورى القراءة والكتابة والعلم، بل يكفي للعضوية أن يكون صاحبها عاقلاً، ولا يتجاوز عدد أعضاء مجلس الشورى عن خمسة، وأخذوا رقم 5 من الصلوات الخمس، فقرروا أن يكون عدد أعضاء مجلس الشورى خمسة، ووظيفتهم مراقبة شؤون الدخل والصرف، وليست هذه المراقبة ناشئة عن شك في المسؤولَيْن عن المالية، وإنما تأكيد للثقة، وتحقيق للطمأنينة، ومشاركة لهما في المسؤولية.

ومن مهام مجلس الشورى تقرير الأنظمة وسنّ القوانين، وتلقين السجناء حجج الدفاع، وحل المشاكل بين السجناء، وإصدار الأحكام التي لا استئناف فيها، وإن كان من حقّ المحكوم أو من حق كل صاحب امتياز أن يطلب العفو عمن يحكم عليه مجلس الشورى بحكم فيه عقوبة.

وأما إدارة الشرطة والتنفيذ فيُختار من يمثّلها مدير السجن، وهو يختار اثنين يساعدانه في بسط الأمن ووقف

المنازعات والخصومات والمضاربات، ورفع الأمر لمجلس الشورى الذي إليه مراد إصدار الأحكام، وإلى ممثلي الشرطة تنفيذها، فمن تكرر فيه الأذى أو المخالفة ولم يذعن لحكم مجلس الشورى رفع ممثل الأمن الأمر إلى مدير السجن حتى يتولى عقاب المذنب، ولا شك أن عقاب مدير السجن أليم، ولهذا يرضى المحكوم عليه بحكم مجلس الشورى الذي يتولى مهمة القضاء والفصل في الخصومات.

وذات يوم - وكان الوقت ضحى فوجئ كل من في السجن بمعركة حامية الوطيس بين اثنين يتراشقان بأباريق الفخار التي تستعمل للوضوء والاستنجاء، وكانت الأباريق تسقط ويكون لانفجارها دويّ، وتتطاير الشظايا، وأسرع حُفَّاظ الأمن من السجناء إلى المتعاركين، وأمسكوا بهما، ولم يتدخل مدير السجن ولا شرطته الرسميون في الحادثة، لأنه من الأمور الداخلية الموكولة إلى السجناء أنفسهم.

وتولت لجنة التحقيق أو الشرطة التحقيق، ثم أبلغوا مجلس الشورى الأمر، وهو الذي يُصدِر الأحكام، فحكم على البادئ بالمعركة بدفع ثمن الأباريق المهشّمة، وبغرامة تسعة قروش على البادئ، وعلى الآخر بستة قروش، وأن يقوما بجمع الشظايا، وتنظيف ممر السجن والدكة.

وأصدر مجلس الشورى حكماً بسجن كل منهما أربعاً وعشرين ساعة سجناً انفرادياً، ولجآ إليَّ، فشفعت في هذه العقوبة فقبل مجلس الشورى شفاعتي، وأما الأحكام الأخرى

فقد نُفِّذت، ورضيا فرحين بالعفو عن السجن الانفرادي، وتم بينهما الصلح.

والغرامات النقدية مَوْرِد آخر للمالية.

وثمة مجلس إصلاح ذات البَيْن مكوَّن من بعض أعضاء مجلس الشورى ومن المسؤول عن أمن السجن الذي يختاره مدير السجن، ومهمة هذا المجلس إصلاح ذات البين بين السجناء الجدد الذين يدخلون الفرن بسبب المضاربات انتظاراً للتحقيق فحكْم القضاء الشرعي.

وما أكثر حوادث المضاربات فقد يدخل كل يوم أو كل بضعة أيام سجينان أو سجناء قد يصل عددهم إلى خمسة وإلى عشرة أحياناً، فيزدحم بهم السجن وتشتد به الجَلَبة، ويكثر الزوار والهدايا والطعام، وبخاصة إذا كان المتضاربون من حيَّيْن مختلفين مثل حي المسفلة والشبيكة، أو أجياد والمسفلة، فحينئذ يكثر الزوار، وتكثر الهدايا، لأن الحي كله يقف مع سجنائه، وكل حي يريد أن يحصل على الفخر لنفسه في المظاهر، كما أن حلفاء كل حي يقفون معه، فيزداد هطول الخيرات على السجن والسجناء.

وفي مثل هذه الحال تصعب أو تتعذَّر مهمة لجنة إصلاح ذات البين، وتسهل إذا كانت المضاربة بين اثنين من العامة أو الضعفاء، فتتدخل لجنة الإصلاح بعد انتهاء لجنة الاستقبال والتحقيق، وتتوسط من أجل الصلح بينهما، لئلا يطول بقاؤهما في السجن انتظاراً لحكم المحكمة، فمن أبى

قاطعه السجناء ووقفوا مع المستجيب للصلح، وغالباً ما يستجيبان.

ويقوم فقراء السجناء بعمل عمال البلدية من كنس وتنظيف تلقاء ما يُعْطَوْن من طعام وشراب، كما يُعطَون ملابس وفراشاً.

وبين السجناء محامون يقومون بتلقين «المتهم» وسائل الدفاع عن نفسه، ومراوغة المحقق وتضليله حتى ينجو من قبضته.

ولا يشترط في «موظف» حكومة السجناء ألاّ يشغل إلا وظيفة واحدة، بل يحق أن يكون موظف المالية عضواً في لجنة الاستقبال والتحقيق، وفي لجنة الإصلاح.

وأما وظيفتي فكانت مقصورة على المشورة، وعلى التحدث إلى السجناء في السياسة ومختلف الأمور.

وموجز القول في حكومة سجن الفرن أن المجالس والإدارات كانت تؤدي أعمالها بأمانة وإخلاص نفتقدهما خارج السجن.

وإذا أفرج عن أحد المسؤولين في حكومة السجن حلّ محله آخر، وهكذا.



أخلاق السجناء

ليس كل السجناء بمجرمين، بل ليس كل قاتل مجرماً، فالذي يقتل دفاعاً عن النفس ليس بمجرم، وإن أخطر المجرمين لا تجدهم وراء القضبان، بل هم طلقاء لهم الحرية في عمل المنكر دون أن تتناولهم يد العدالة التي تمجّدهم.

ولو كانت الأمور في الدنيا تسير على منهج الحق لكان كثير ممن يقضون في مصائر الناس أجدر بالسجن من آلاف السجناء الذين أدخلهم غباؤهم أو فقرهم أو هبوط مركزهم الاجتماعي السجن.

ويعلم اللَّه أنني أعرف أناساً يشغلون مناصب رفيعة أو أناساً يقعدون في ذروة المجتمع وهم غرقى الموبقات والإجرام.

وعرفت في السجن سجناء أنبل من آلاف ممن يتمتعون بالحرية وحُسن السمعة بغير حق.

كنت في السجن مريضاً، ولم أشفَ من الملاريا كل الشفاء، فكانت تفارقني ثم تعود، ومرّ بالقارئ أنني كنت سجيناً بالسجن الانفرادي في غرفة موحشة مزعجة ليلاً ونهاراً.

وكانت أوامر مدير السجن ألا يتحدث إليّ أحد، وأوكل لخدمتي سجينين على ألا يتجاوز حديثهما معي إلا كلمة ورد غطائها كما أمر مدير السجن، وأنذرهما بشرٍّ مستطير إذا تجاوزا في الخدمة عن الضرورات كطلب ماء أو شاي أو تناول الطعام من أحد أخواني وإحضاره إليّ، أو تناول هدايا الزائرين لي من سجائر وفواكه وإيصالها إليّ.

كان أحد السجينين حراً، والآخر عبداً، والحق أن هذين السجينين قاما بأجلِّ الخدمات أدَّياها لي وتحمّلا في سبيل أدائها تَبِعات، ولكن اللَّه سلم.

كانا يُهرِّبان إليّ الورق والقلم، ويسلِّمان ما أكتب لمن أريد في حرص وكتمان، ولو ضبطا لنالهما من العقاب ما لا يحتمل.

وسُجِنَ العبد لأن اعتداء وقع على سيده من عسوف ظلوم، فدافع عن سيده دفاع الأبطال، وضرب المعتدي ضرباً مبرّحاً، فزُجَّ به في سجن الفرن حتى يصدر حكم الشرع.

وأراد اللَّه للحر الإفراج فغادر السجن ونحن ندعو له بأن يعيش دائماً معافى سالماً بعيداً عن الحكومة والسجن، وكان يتردد علينا زائراً كل بضعة أيام، ويؤدي لزملائه السابقين من الخدمات ما هم في حاجة إليه.

أما المملوك فبقي يخدمني بإخلاص، واسمه «نجيب» وكان شاباً يفوق آلاف الأحرار في مكارم الأخلاق، وكان سيده باراً به، فقد عرف له فضله وجميله فما قصَّر عنه قط،

كانت مائدة المملوك من أحفل الموائد، وكان كيسه مليئاً بالريالات الفضية ينفق بلا حساب لخير زملائه.

وقلت لسيده ذات مرة: «واللّه لو كنت أملك قيمة عبدك لاشتريته وأعتقته لوجه اللّه»، فرد عليّ: «أترى إنساناً مؤمناً يبيع ولده؟ نجيب ولدي، وأشهد أنه حر، وهو يعرف أنه حر، ويعرف كثير من الناس ذلك، ولكن السمعة القديمة لازمته فيظن الناس أنه ما يزال عبداً لي، أترى ما فيه نجيب يشبه حياة العبيد؟!».

قلت: «كلا، وإنك لشهم، وأشهد أن نجيباً فاق كثيراً من الأحرار كمالاً وفضلاً وخُلُقاً ونُبلاً».

كان «نجيب» أسود البشرة، ولكنه كان حسن التقاسيم، سَمِحاً، كريماً، خفيف الروح، حسن الحديث، وحدث عن سخائه وكرمه ولا حرج، فقد كنت أراه كثير العطف على فقراء السجناء، يعطيهم النقود، ويشتري لهم ما هم في حاجة إليه، وكنت أكلفه بشراء بعض ما أحتاج إليه فيشتريه ويأبى أن يأخذ مني ثمن ما دفع، ومن أكرم صفات نجيب أنه كان أخذ على عاتقه تَبِعة إعداد المائدة، فقد كنت أنا وأربعة المدنيين وأحمد مفتي ونجيب جماعة، وهناك جماعات، فبعد أن يعد نجيب مائدتنا يُعِدّ مائدة الفقراء بأخذ ما يفيض على موائد القادرين قبل أن تمتد إليها الأيدي ويعزل نصيب الفقراء ثم يدعوهم فإذا أقبلوا على مائدتهم عاد إلينا نجيب ليأكل معنا.

ويظهر أن مكانة نجيب عند سيده رفيعة، وأحسب أن

مكانته قد زادت عند سيده ارتفاعاً بعد تصدِّيه لمن اعتدى عليه، فكانت مائدته في الصباح غيرها في الظهر، ومائدة العشاء غير مائدة الفطور والغداء، وكانت مائدة نجيب من أحفل الموائد وأكثرها تنوّعاً.

ويظهر أن خصم سيد نجيب لم تثمر لديه وساطة كبار أهل مكة، وتشبث بأن يسوقه إلى المحكمة رجاء أن تحكم عليه بالجَلد تعذيباً، وكان سيد نجيب على استعداد ليفدي نجيباً من الجَلد، ولم ييأس من بذل الجهود.

وذات صباح فوجئنا بدخول مدير السجن ونادى نجيباً وسجناء آخرين، وسلمهم لشرطة يحرسونهم، وذهبوا بهم إلى سجن يسمى «المحروق» ويسمى - أيضاً - الحوش، والاسم الأول أليَق، فمن يكون في الفرن لا بد أن يكون محروقاً، ومن أطلق على هذا السجن اسم «المحروق» لم يرد المطابقة أو مقتضى الحال، بل كان المحروق قصراً للشريف حسين ملك الحجاز الأسبق أو قصراً من قصور الأشراف الحكام وقد احترق، وكان وراءه فناء خلفه مبنى أرضي على جوانبه الأربعة غرف، وفي الوسط فناء واسع مكشوف، ويظهر أنه كان مقراً للجنود والحراس.

غادرنا نجيب وكل من في السجن يذكره بالخير الذي هو أهله، ويدعو له، وكانت أنباؤه تصلنا عن طريق سيده الذي لم ينقطع عن زيارتنا.

وبعد خروجي من السجن كنت أزور نجيباً في سجن

«المحروق» وأردّ بعض جميله، وإن كان البادئ بالفضل أعظم وأكرم، ونجيب كان البادئ.

ومن فضل اللّه لم يُحكَم على نجيب بالجَلد تعزيراً، وإنما حكم عليه القاضي بالسجن ثلاثة شهور مع احتساب ما أمضى من الأيام في الفرن قبل صدور الحكم، وبذلك انتصر سيد نجيب.

وبينما سجن الفرن في وجوم وحزن لفراق نجيب زُجَّ بسجين من الأشراف من آل البيت يسمى الشريف «نصاراً» ومهنته سياقة السيارات، وقد دخل السجن بسبب اصطدام سيارته بسيارة شخصية بارزة.

وحسب النظام دخل السجن، رأت لجنة الاستقبال والتحقيق أن تضع الشريف نصاراً في جماعتنا فرحّبنا به أجمل ترحاب، والحق أن وجوده شغلنا عن الأسى على فراق نجيب، فقد كان الشريف نصار جوَّاب آفاق، رحل إلى العراق وإلى الشام وإلى مصر، ورأى مدناً تُنار بالكهرباء، وشوارع وطرقاً مُسَفْلَتَة ومشجَّرة، ورأى السينما والمسرح، وكان نصار نفسه ممثلاً بارعاً ومغنياً مُجيداً وكريماً جواداً وقصّاصاً حاذقاً.

بث في سجن الفرن المرح والسرور والضحك، وكنا نضحك ونقهقه الساعات الطويلة، وهو يلعب بألباب السامعين لعباً.

وكان الشريف نصار شديد الوطأة على «الشوام» أي

الشاميين، يحكي بلهجتهم قصصهم ونوادرهم فلا نملك أنفسنا من الضحك، ويتعذّر عليّ أن أنقل في هذه الصفحات بالعربية الفصحى، أو بعاميتي ولهجتي، النوادر التي حكاها الشريف عن الشوام، فنقلها على الورق يفقدها روحها، فهي مما يُروَى باللسان لا بالأقلام.

ومن نوادر الشريف أذكر بعضها:

1 - مرض شامي يدعى «أيوب» واشتد به المرض على مر الأيام، فطلب إلى أهله أن يصعدوا به إلى سطح داره، فرفع رأسه إلى السماء وقال: «يا رب، أنا أيوب الشامي بياع الكبيبة مش أيوب النبي!»

2 - حج شاميان، وبعد أن أتما حجَّهما ودخلا المسجد الحرام لطواف الوداع، وما أن انتهيا منه حتى خسف القمر، وأخذ الناس يصلون ومعهما الشاميان الحاجان، وطال وقوفها والإمام لا يركع، وتعبا فالتفت أحدهما إلى الآخر وقال له: «أبو رشيد، هُوَّ أَمَرْنا (قَمَرُنا) وإلا أَمَرْهم (قَمَرُهم)» وتركا الصلاة وغادرا مكة عائدين إلى وطنهما. وجاءا للحج في السنة القادمة ودخلا مكة يوم التروية فصادف مجيئهما إلى مكة خسوف القمر، وأرادوا دخول الحرم لطواف القدوم فإذا الناس وقوف للصلاة فقال أحدهما للآخر: «سنة وهم يصلون لأَمَرَهم (لقَمَرهم) وما رضي! ما أحسن أَمَرنا (قَمَرنا) أَمَر (قَمَر) الشام طيب».

3 - كان شامي فقير يحمل على رأسه زنبيل حنطة،

وتذكر أن اللَّه قادر على كل شيء، ووضع يده في الزنبيل فإذا هي حنطة على حالها، ودعا ربه أن يقلبها فصوص ألماس، وتحسس بيده فإذا الحنطة كما هي، فظن أن اللّه استكثر الألماس عليه، فتواضع في طلبه وقال: «يا رب، اقلبها ذهباً ثم فضة ثم قروشاً»، ورفع يده إلى زنبيله فإذا الحنطة حنطة، فغضب الشامي وصاح رافعاً رأسه إلى السماء: «انثرها على التراب»، فسقط الزنبيل وانتثرت الحنطة فقال: «يا ربّ، إش لون قبلت دعائي بنثر الحنطة فوراً وفي لمح البصر».

4 - كان حاج شامي بعرفة ونام، فلما صحا فجراً لم يجد خُرْجه الذي فيه متاعه، وأخذ يولول، فقال له حاج سوداني: «لو قرأت آية الكرسي لحفظ اللَّه لك خرجك ولما سُرِق متاعك!» فرد عليه الشامي في غضب: «المصحف كله في الخرج وسُرق الخرج والمصحف معاً».

5 - كان سوداني ثري يزور دمشق، وتصادق مع شامي كان يصحبه ليل نهار، ويأكل على حساب السوداني، وأراد ذات يوم شراء علبة كبريت فاقترض من الشامي قرشاً سورياً أكمل به ثمن علبة الكبريت، ودعا السودانيُّ صاحبه الشاميَّ لزيارته ببلده الخرطوم، فقبل الدعوة، وأعطاه ثمن التذكرة إلى مصر ثم إلى الخرطوم مع مصروفات الطريق.

واستقبل السوداني صديقه الشامي وأكرمه أعظم الإكرام، ولما قرر الشامي العودة وحُدِّدَ يوم السفر أعد السوداني - وكان غنياً - ألف جنيه ذهبي وضعه في كيس، ولما ركب الشامي

القطار سلمه بدرة الذهب، وقال: «هذه ألف جنيه هدية مني لك»، ووقف السوداني على المحطة والقطار أطلق صفارته وأخذ يمشي ببطء فإذا الشامي يطل برأسه من نافذة القطار قائلاً: «أبو بكر ما أعطيتني الإرش (الغرش) اللي استلفته مني!».

وعشرات من هذه النوادر، ويروي الناس كثيراً من نوادر الشوام وسرعة صدور كلمات الكفر من عامتهم، وقد سمعت أنا نفسي من بعض الشوام مثل تلك العبارات من شامي متصوف كفراً في غاية البشاعة والنكر.

* * *

وكان الشريف نصار إلى جانب خفة روحه يحسن الغناء، ويحاكي عبد الوهاب وفريد الأطرش وكبار المغنين في لبنان والشام، وكنا نحن السجناء نردد معه اللازمة التي تتطلب الترديد.

والحق، إن الشريف نصاراً حوَّل السجن كله إلى بهجة ومرح، وخفف علينا ثقل السجن وكربه.

وكانت أغاني سلامة الأغواني المرحة الظريفة الخفيفة قد انتشرت، وكان الشريف يجيد محاكاتها إجادة بالغة.

وسلامة الأَغواني فنان سوري شعبي، وأسطوانات أغانيه كانت تُباع في مدن الحجاز سراً، وكان عندي بعضها، كما كان لديَّ «فونوغراف» أحضرته معي من مصر مع أسطوانات مصرية، ويُسمَّى الفونوغراف في الحجاز صندوقاً، وهو محرَّم من قِبَل الحكومة، والمشائخ النجديون يشددون في تحريمه، وهم وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعاقبون من

يجدون لديه الصندوق، ومن يسمعون الأغاني.

والأغَواني أصله أفغاني، وأغَواني تحريف أفغاني.

وجاء الفرج للشريف نصار وودعناه فرحين بإطلاق سراحه، وإن كان وجوده بالفرن خفف من حرارته ولطَّف من جوّه الكئيب.

وما أعظم رحمة اللّه بعباده البائسين وبخاصة السجناء المغلوبين على أمرهم، فما كدنا نودع الشريف نصاراً ويختفي عنا إلا وباب السجن يُفتَح ليدخل شاب مصري يدعى «محمد المصري» يبلغ الثلاثين من عمره، وإذا أريد تعريفه قيل فيه: أفكوهة حية، فحركاته كوميديا، وهو نفسه - أيضاً - تمثيلية هزلية تثير الضحك إلى حد القهقهة.

وكان يقص علينا الفكاهات ويمثل القصة تمثيلاً آية في الروعة والإتقان، وكان ينتزع الإعجاب والضحك من كل من في السجن.

وقد مرّت الإشارة إلى أربعة السجناء القادمين من المدينة المنوّرة، وكان بينهم شاب جميل كان شديد الحزن والكآبة، لم يبتسم منذ دخوله السجن وإن كان يأنس بحديثي، وكان زملاؤه يرجونه أن ينطلق ويتحدث فما كان يزداد إلا انقباضاً وحزناً ووجوماً.

ومع أن الشريف نصاراً كان قديراً في اجتذاب الإعجاب وانتزاع الضحك فإنه لم يستطع أن يتغلب على تقطيب الشاب المدني.

فلما دخل السجن محمد المصري وأخذ يقص القصص ويقلد الممثلين استطاع أن يحمل الشاب المدني على الضحك.

ولشد ما أسعدني أن يضحك هذا الشاب البائس الذي ترك في مدينة الرسول صلى اللَّه عليه وسلم أمه وأخته، فهو يذكرهما في أسى ووجوم، ولا يكاد يتكلم، وكأنه تمثال للأسى الذي يَحْطِم النفس حَطْماً.

وحوَّل محمد المصري سجن الفرن إلى مسرح غارق في المرح والضحك والسرور.

وأمضى محمد المصري معنا بضعة أيام لم نفتر من الضحك؛ ونسينا أنفسنا وواقعنا، وذات صباح أطل مدير السجن من الخوخة ونادى المصري وأمره أن يرتدي ملابسه لمغادرة السجن في هذه الدقيقة فقد صدر الأمر بالإفراج عنه.

وكل سجين لا يكاد يسمع نبأ الإفراج عنه إلا طار من الفرح إلا محمد المصري فقد استقبل نبأ الإفراج عنه بانقباض وسخط، فقد بدأ في قصة يمثِّلها، وجاء الإفراج عنه وهو في أول القصة، فأبى أن يخرج حتى اضطر مدير السجن إلى إخراجه بالقوة إذا لم يمتثل لأمره، فقال في غضب: «أدخلتموني السجن على غير رضا مني، وها أنتم أولاء تخرجونني على غير رضا مني أيضاً، دعوني حتى أكمل القصة ثم أرتدي ملابسي وألُمّ فراشي»، فأبى مدير السجن وقال له: «لا تضيع وقتي، أسرع بارتداء ملابسك لتغادر السجن إلى غير رجعة»، فردّ عليه «فال اللَّه ولا فالك!» وأخذنا نضحك.

وأخذ يلبس ملابسه وهو مستمر في قصته والسجناء يحيطون به، فإذا مشى مشوا وراءه، وإذا وقف وقفوا، وكان يتثاقل في ارتداء ملابسه وجمْع حاجاته حتى انتهى من ذلك وليس من قصته، فقد بقي منها كثير، ومشوا معه إلى باب السجن، فتذكر أمراً وأفلت من يد السجّان وجرى بسرعة، وقفز خلفه مدير السجن، وإذا المصري يقصدني فيمسك به السجّان؛ فيقول له: «يا راجل، خليني أودّع العم أحمد» وودعني وتمنى لي الإفراج، وقال: «لو قبلوا الفداء لرضيت بأن أبقى مكانك وتخرج أنت»، فشكرته، وكان صادقاً.

وفتح باب الفرن وطرد منه محمد المصري شر طردة من قِبَل مدير السجن، وأغلق الباب وخرج محمد المصري، وبعد دقيقة أو دقيقتين عاد وأطل من الخوخة فتسابق السجناء إليه وقال لهم: «اسمعوا، جئت لأعدكم بأن أعود إليكم غداً إن شاء اللَّه لأقصّ عليكم بقية القصة».

ولعل القارئ يسأل عن جريمة محمد المصري التي أدخلته الفرن، فأجيبه: إنه كان يعمل لدى أحد الأمراء مهرّجاً ومضحكاً، فأفزع بعض أطفاله الصغار ببعض تمثيلياته، فأمر بسجنه، وبعد يوم أو يومين أمر بالإفراج عنه فأطلق سراحه.

وسُرَّ به الأمير، واستأذنه في اليوم الثاني أن يزور السجن ليكمل لزملائه بقية قصته التي بدأها، فجاء أمر الإفراج فلم يَسمَحْ له مدير السجن، ويود أن ينجز وعده، فأذن له سموّ الأمير وهو يضحك.

وفوجئت في صباح اليوم الثاني بتسابق السجناء إلى باب السجن جرياً ووثباً وطَفْراً، وهم يهتفون: محمد المصري، فقد رأوه من الخوخة إذ أدخل منها رأسه وحده وسائر جسده خارجه وأخذ يكمل القصة، والسجناء يسمعون ويقهقهون، ولم يستطع محمد المصري أداء القصة كاملة كما يريد، لأن قصَّها وتمثيلها يتقتضيان حركات من يديه ورجليه وسائر جسده الذي بقي خارج باب السجن إلا رأسه المطل وحده، ومع ذلك سعد السجناء، وذكَّرنا منظره بمنظر الحاوي الذي كنا نراه في عيد الفطر ونحن أطفال وهو يمثل «رأس بلا جِتَّة» أي «رأس بلا جثة».

وكنت أنا على الدكة قريباً من الباب أسمع وأرى، وبعد أن أخذ ساعة في إكمال قصته ودّعنا جميعاً بصوته الجهوري، ودعا لزملائه جميعاً بأن يطلق اللّه سراحهم، وأن يميت مدير السجن وعسكره جوعاً، لأن رزقهم يأتيهم بسبب السجناء، ولو خلا منهم الفرن لماتوا جوعاً.

وجاءهم محمد المصري بهدايا سجائر وسكر وشاي، كما أعطى السجناء عشرة ريالات هبة منه.

والحق، أن محمد المصري كان شخصية من أظرف الشخصيات التي رأيتها، وكان بارعاً في تمثيله ونكاته ونوادره.

وكان إلى جانب ظُرفه وفنه كريماً طيباً، وقد ترك مع هداياه للسجناء أجمل الذكريات التي لا تنسى.

يوم الإفراج

من المصادفات الغريبة أن يوم الأحد ليله أو نهاره يوم السعد أو النحس في حياتي، ففي ليلته تم تفتيش داري من قِبَل رجال الأمن العام الذين استولوا على كل ورقة مكتوبة وجدوها بمكتبتي، وكان بينها مقالات وبحوث ورسائل أدبية وعلمية وبعض مؤلفات لي، وكان فيها آراء جديدة وبحوث مبتكرة «صودرت» جميعها، ولم يعيدوها إليّ، ولما طلبتُ من مدير الأمن العام إعادتها إليَّ، أبى.

وانتقلت من المستشفى إلى سجن الفرن يوم الأحد، وفي مساء يوم أحد عُزِلت عن السجناء محكوماً عليَّ بالسجن الانفرادي، وفي يوم أحد سُمح لي بأن يكون باب غرفة سجني مفتوحاً، وفي يوم أحد رُدَّت إليَّ حريتي في القراءة وفي الكتابة، وسمحوا لي بالكتب والصحف والورق والقلم، وكثير من الأمور السعيدة والشقية كانت تتم يوم الأحد، وكأن السعد والنحس في سباق يقوم بينهما في هذا اليوم، فأيهما سبق جرّ إلي ما يصحبه، فإذا سبق السعد جرَّ إليّ المغانم، وإذا سبقه النحس جرّ إلي ما في النحس دائماً من الأكدار والمصائب.

ولأعدْ إلى الوراء قليلاً فأذكر أنني وصلت إلى جدة من مصر مفصولاً من البعثة التي كنت أحد أعضائها يوم الأحد.

ووصلت إلى الرياض منفيًّا من مكة صباح يوم الأحد، وزُججت في اليوم نفسه بسجن الرياض المسمى «المصمك» ومن سعدي أنهم وضعوني مع حجازي يسمى السيد حسين نائب الحرم الذي كان نعْمَ الصاحب، فقد كان رجلاً كبيراً وكنت شاباً صغيراً في العشرين من العمر تقريباً أو على التحقيق، وذات أحد فصلوني عنه ليتم لكل منا السجن الانفرادي، ووصلني نبأ عفو جلالة الملك عصر يوم أحد نقله إليّ مدير شرطة الرياض واسمه «ابن عطيشان» وبعد شهر من ذلك النبأ أفرج عني عصر يوم أحد، وما أكثر الحوادث التي تمت في يوم الأحد بسجن الفرن أو بالمستشفى أو بالمنفى بسجن الرياض، فإذا سبق طالع السعد كان السعد وإلا إذا سبق النحس كان ما يصحب النحس دائماً من المِحَن والخطوب.

ونعود إلى يوم الإفراج عني وهو يوم أحد، فقد ناداني مدير الأمن العام وقابلني بغرفته وأخبرني أن الأمير العظيم فيصلاً نائب جلالة الملك المعظَّم قد عفا عني، وأمر بإطلاق سراحي.

وكان سموّه قد عاد من «سجا» يوم السبت، وكان من عادة سموّه في عيد الفطر وفي المناسبات وفي يوم الجمعة وإذا قَدِم من سفر أن يستقبل الناس في دار الحكومة التي تشغلها إدارة الأمن العام بأقسامها، وكتابة العدل، والمحكمة

المستعجلة، ووزارة الخارجية، ومجلس الشورى، ومديرية المعارف العامة.

وكانت بدار الحكومة غرفة واسعة في الطبقة الثانية مُعدَّة لسموّه يستقبل فيها زواره في المناسبات.

فلما عاد من «سجا» جاء إلى دار الحكومة ليستقبل المهنئين وكان فيهم إخوتي الكبار الثلاثة، وتحدث إليه أكبرهم يذكِّره بوعده، وكان يوم أحد، وكان مدير الأمن العام على مرأى من سموّه فناداه وأمره أمام إخوتي بإطلاق سراحي فوراً، فأخذ إخوتي وقال لهم: «قابلوني بغرفتي بعد مغادرة سموّ الأمير».

وبعد مغادرة سموّه دار الحكومة أرسل إلي مدير الأمن العام فأخذوني إليه، فرأيت إخوتي عند باب غرفة المدير وحيّيتهم فأخبروني بمقابلتهم الأمير فيصل وبصدور أمره بإطلاق سراحي فوراً، واستقبلني مدير الأمن العام بحفاوة وترحاب، وأبلغني أن سموّ الأمير فيصل قد أمر بإطلاق سراحي والعفو عني، وأمرني مدير الأمن العام وليس الأمير بأن أكتب تعهُّداً بألا أكتب في السياسة أو أخوض فيها، فكتبت التعهُّد، وأطلق سراحي.

وعدت إلى السجن آخذ فراشي وبعض كتبي وأودِّع الزملاء الكرام، وأعطيتهم كعادة من يُفرج عنهم كل ما عندي من السجائر والسكر والشاي وبعض النقود وودّعتهم متمنياً لهم الخير وإطلاق السراح.

ورأى إخوتي وكان معهم الصديق محمد خياط أن أطوف ثم أقابل الأمير فيصل في دار النيابة، ومضوا إلى البيت بفراشي، وانفتلت إلى الحرم ومعي الصديق الخياط وطفت ببيت اللّه شكراً له جلّ جلاله على ما أنعم علي، ثم مضيت إلى دار النيابة، وقابلت سموّه وشكرت له فضله الذي يضاف إلى ما سبق له عليَّ من فضله العميم الكثير.

ثم عدت إلى بيتي الذي كان مزدحماً بالمهنئين، وقد صنع إخوتي طعاماً ابتهاجاً بإطلاق سراحي، وامتلأت دارنا على سعتها بالأصدقاء والأهل وذوي القربى وبكثير من أهل الحي وممن يعرفونني.

وطبيعي أنه كان أسعد يوم في حياتي الماضية، وفي يوم الاثنين جاءني بعض الأصحاب وخرجت معهم إلى شوارع مكة وأسواقها حتى صعدنا إلى أعلاها أستمتع بالحرية بعد خمسين يوماً قضيتها بين سجن المنطقة والمستشفى وسجن الفرن.

أستمتع بهذه الحرية التي أعادهٰ إليّ الأمير فيصل بفضل اللّه وكرمه، وعدنا أنا وأصحابي هؤلاء وفيهم - طبعاً - الصديق محمد خياط إلى دارنا وتغدينا، وقبل المغرب بساعة مضينا - كعادتنا - إلى أسفل مكة للتنزه حيث كنا نجلس بأحد المقاهي، ونصلي به المغرب جماعة ثم نعود على أذان العشاء إلى منازلنا، أو نمضي إلى الحرم الشريف لصلاة العشاء والطواف.

حاضر قَلِقٌ ومستقبل مجهول

خرجت من السجن وعادت إليّ حريتي بفضل اللَّه ثم بفضل الأمير فيصل؛ ولم تكن بيدي «صنعة» أرتزق منها مثل صديقنا محمد بك خياط الذي كان يمتهن «الخياطة» ويرتزق منها، وكانت الأيام أيام أزمة، وأستطيع أن أمتهن التدريس، فعندي شهادة المعهد العلمي السعودي والشهادة الابتدائية، وشهادات كثيرة من المدرِّسين بالمسجد الحرام في علوم الدين والعربية، ولكن ما كنت أميل إلى التدريس، فلم تبق إلا الوظيفة.

وعندما زرت الشيخ محمد سرور الصبان مدير المالية العام، وشكرت له فضله سألني عن العمل الذي أريد أن أعمله، فقلت له: «لم أفكر في العمل، فعرض عليَّ العمل بوزارة المالية، فاستمهلته للتفكير».

وعندما قابلت الأمير فيصل بعد خروجي من السجن ثم قابلت رئيس ديوانه الشيخ إبراهيم السليمان عرض علي العمل بالنيابة فاستمهلته لأفكر.

وكانت النيابة - ويُقصد بها في بلادنا نيابة جلالة الملك وليست النيابة بمفهومها القانوني في مصر والبلدان المستعمَرة

من قِبَل الأوروبيين - تحوي عدداً من الأدباء مثل عمر عرب وعبد السلام عمر كما كانت وزارة المالية تحفل بعدد من الأدباء على رأسهم زعيم الأدب الشيخ محمد سرور الصبان، ومنهم: الشيخ عبد الوهاب آشي.

لم أكن أميل إلى الوظيفة، بل كنت أرغب في الدراسة الجامعية، وكنت أعشق المعرفة عشقاً، وأصبو إلى العلم صُبُوّاً، وذكرت عرضين سابقين لبعثتي إلى مصر وهما: أن صديقاً لأبي رحمه اللَّه عرض عليه أن يصحبني إلى الهند ليشرف على تعليمي، ووعد بالإنفاق علي، فقد كان غنياً واسع الغنى، فلم يقبل أبي أن يخرجني من مكة صغيراً، بل كان مُقرِّراً أن أتعلم بمكة المكرّمة، ففيها مدرسة الصولتية التي أسسها الإمام العلاّمة الهندي الكبير رحمه اللَّه الهندي مؤلف كتاب «إظهار الحق» وهو من أعظم الكتب المؤلَّفة في بيان وثنية المسيحية واليهودية وما في الكتاب المقدَّس لديهما بعهديه من علل وخطل وزلل وخطأ وكفر وأباطيل وبهتان.

وفيها مدرسة الفلاح التي أسسها الشيخ محمد علي زينل تاجر اللؤلؤ المشهور، وأحد أئمة المسلمين المجددين الصالحين المنفقين أموالهم في وجوه الخير.

وإذا كانت الصولتية تُعْنَى بعلوم الدين والعربية فإن مدرسة الفلاح تُعْنَى بها أيضاً، وتدرِّس غيرها من العلوم كالجغرافيا والهندسة والحساب، كما أن الصولتية كانت تدرِّس في علوم الدين والعربية كتباً لا تدرِّسها مدرسة الفلاح.

ثم أنشئ المعهد العلمي السعودي (أنشأه الملك عبد العزيز) ووُضِع منهجه على المنهج الحديث في الدراسة، وتفرَّد ببعض العلوم التي لا تعرفها الصولتية ولا الفلاح بمكة المكرمة ولا الفلاح بجدة.

ولا أشك أن هذه المدارس العظيمة كانت تحوي الأئمة في علوم الدين والعربية، وكان أساتذة المعهد مزيجاً من أئمة العلماء في الدين والعربية إلى جانب أساتذة عصريين من مصر يدرِّسون العربية واللغة الإنجليزية، وهما علمان لا يُدَرَّسان بغير المعهد العلمي السعودي.

وكان صديق أبي - ذلك الثري الهندي - قد حجَّ بعد موت أبي أسكنه اللّه الفردوس الأعلى، وكنت في السنة النهائية بالمعهد، فجدد عرضه السخي، ووعد بأن يدخلني جامعة عليكرة وينفق عليّ، ووعد بأن يزوجني إذا أردت أنا، فوعدت أن أكتب إليه بما أقرره.

وفي السنة نفسها حج عالم مراكشي جليل يسمى «محمد عثمان المراكشي» كان ينزل في دار أمام بيت صديقنا صالح محضر، وكان تحت دار الحاج المراكشي كرسي طويل من سعف النخيل، وكانت لهذه الدار نافذة تطل على الشارع يجلس بها المراكشي الجليل ويسمع أحاديثنا ولم تكن في غير العلم، فدعاني إلى غرفته وأهدى إليّ مجموعة من أمهات الكتب في التفسير والحديث والفقه واللغة، كما وهب لي بعض الملابس المراكشية الغالية، ونفحني عشرين جنيهاً

مصرياً - وكان الجنيه المصري رائجاً في دول أفريقيا - وكنت أتردد على العالم المراكشي الذي كان معجباً بي وبأدبي وأسلوبي، وأحبّني حب الأب ولده، وعرض علي أن يصحبني إلى مراكش ويعلمني بها التعليم العالي، فإذا انتهيت منه استعد أن يبعثني إلى باريس على حسابه لأتعلم بإحدى جامعاتها، ووعدني بأن يزوّجني إحدى بناته؛ فشكرت له فضله العميم، ووعدته بأن أكتب إليه إذا عزمت على الشخوص إليه.

وعندما وجدت نفسي بلا عمل وكانت صبوتي إلى العلم والمعرفة غير محدودة قررت أن أكتب للشيخ محمد عثمان المراكشي أخبره بموافقتي على عرضه.

ولكن، هل توافق الحكومة على مغادرة البلاد ولو لطلب العلم بعد ما وُجِّه إليّ من اتهام بأني كنت ضدها، وإن كان الاتهام باطلاً كله، وإن كان لم يثبت منه في التحقيق شيء.

وذكرت لأمي رغبتي في الكتابة إلى الشيخ المراكشي فأبت، لأنها أدركت أو اعتقدت بأنني إذا فارقتها وتزوجت من ابنة الشيخ المراكشي وتعلمت في باريس فإن عودتي إليها غير مضمونة.

وكان رضا أمي غالياً إلى أبعد الحدود، فلم أكتب للشيخ المراكشي، وقبلت رأيها وبقيت في مكة، ولم يجدّ جديد في حياتي بها، وكنت أقضي الوقت في زيارة الأصحاب وفي القراءة التي لم أنقطع عنها قط.

وكنت صحبت من مصر مكتبة حافلة في عشرة صناديق، كما كانت لديّ مكتبة حافلة تركتها بمكة عند سفري إلى مصر، فشغلت نفسي بالقراءة والمسجد الحرام الذي طالت صحبتي له منذ الطفولة عندما كان أبي يصحبني معه قُبَيل المغرب حتى بعد صلاة العشاء، وعندما كنت تلميذاً بالابتدائية كنت أحضر إلى الحرم بعد العصر وأعود إلى المنزل بعد صلاة العشاء حتى سافرت إلى مصر.

كنا في عهد التلمذة وطلب العلم بالمعهد لا نفارق الحرم إلا وقت النوم والدراسة، وكنا نطوف بحلقات العلماء - وما كان أكثرهم - نتزود من علوم الدين والعربية.

وفي هذه الأيام كنت أتردد على الحرم كثيراً، ثم عنّ لي أن أدرس دروساً خصوصية على أيدي أئمة العلم بمكة، فكنت أنا ومحمد خياط وبعض الأصحاب نزور أولئك الأئمة في بيوتهم المتواضعة، وكان أكثرهم من الأساتذة في المدرسة الصولتية، وتوسعنا في دراسة الفقه الحنفي فقه مذهبي فقد كنت حنفياً.

واستمررت على هذا النحو من الحياة التي لم يكن فيها ملل، بل كنت سعيداً بها وإن لم أحقق أمنيتي في طلب العلم بالجامعة، وإن كنت عوّضت ذلك بكثرة القراءة وسِعَة الاطلاع، وتلقّي العلم من أئمته في بلد اللّه الحرام.

وبينما أنا على هذه الحال عرضت عليَّ أمي الزواج فاعتذرت لها فلم تقبل، وأصرّت على أن أتزوج، فقد أدركت

أني أريد السفر لطلب العلم، وهي لا تريد أن أبتعد عنها، ولا تصدق أن في الدنيا علماً أعظم من العلم بالمسجد الحرام، ورأت أن تقيِّد رجليّ وتوثقني بمكة المكرمة فأصرّت على زواجي.

وخطبت لي من بيت بحي أجياد من أسرة كريمة لا أعرفها، وإن كنت أعرف خالتها إذ كانت جارة لنا، وأقرب إلينا من كثير من ذوي قرابتنا، وكنت أتردد عليها دائماً منذ كنت طفلاً صغيراً، ولكني لم أسمع بخطيبتي ولم أرها قط.

واضطررت إلى الموافقة لأكسب رضا أمي، وإن كنت في أعماق نفسي غير راغب في الزواج.

وسألت إحدى قريباتي عن هذه الخطيبة فأثنت عليها ثناء جميلاً، وأطرت جمالها وسحرها وخلائقها، ولكن كل ذلك لم يُرَغِّبني في الزواج، ورضيت بالخِطبة لأغنم رضا أمي، وكنت قد خططت في نفسي إرضاء أمي بقبول الزواج، وبعد بضعة شهور أسرِّح الزوجة إرضاء لنفسي؛ رجاء أن أواصل الدراسة الجامعية.



القبض عليّ من جديد

رحم اللّه أبا العلاء المعرّي الذي يقول في بعض شعره: «وتُقَدِّرون فتضحك الأقدار» فبينا أمي جاهدة في الخطبة تريد أن تزوجني كنت تاركاً أمري لله يفعل ما يريد.

وانتدب أخي محمد صديقاً فاضلاً كريماً له يدعى الشيخ «أحمد قمر الدين» كان ذا قدر عند الناس ليخطب من اختارتها أمي. واستمهله ولي أمر المخطوبة حتى يسأل عني، ويبحث عن أخلاقي، ويستشير ذوي الرأي، إذ كان الناس يطيلون التريُّث والتفكير في أمور الخطبة والزواج.

كانت أمي شديدة الاهتمام بالأمر حتى تطمئن إلى مستقبلي، وتضمن بقائي، وكانت الأسرة كلها تتبع أمي في الاهتمام، وإن كنت أنا في همٍّ منه.

وبينما أمي وإخوتي وبعض أقاربي مجتهدون في أمر الخطبة لي كنت أنا ماضياً في أسلوب الحياة الذي ذكرته في الفصل الذي سبق.

كنا نحن نقدِّر وإذا القدر يضحك من تقديرنا فحدث ما غيَّر كل ما خططنا، وبدَّد أمل أمي، وهأنذا ذاكر في الصفحات الآتية هذا الذي حدث فبدّد كل ما خططنا.

كانت مطبعة الحكومة المسمّاة مطبعة أم القرى تقع على بُعد خطوات من دار الحكومة، وكان بعض زملائي وأصدقائي موظفين بها، منهم الأديب الشاعر الأستاذ طاهر زمخشري.

وزرته بمقر عمله بالمطبعة وكنت حليق اللحية، وكان قد صدر الأمر من المشائخ بالقبض على كل من يحلق ذقنه لمعاقبته إما بالسجن ثلاثة أيام، أو دفع سبعة ريالات ونصف ريال غرامة، بنسبة ريالين ونصف ريال عن كل يوم، ولا بد أن تدفع الغرامة عن الأيام الثلاثة جملة ودفعة واحدة.

وكان للريال قوة شرائية عُظمى، فقد كان يكفي للإنفاق على أسرة متوسطة مكوَّنة من خمسة أو ستة، وكان الناس في أزمة وفقر، ولهذا كان للقرش قيمة، وكانت الغرامة باهظة لا يطيق دفعها إلا آحاد، وكان أكثرهم لا يدفعونها ويؤثرون السجن عليها ثلاثة أيام.

وكان جنود هيئة الأمر يقبضون على كل من يحلق لحيته ويحضرونه إلى مفوّض القسم الإداري «علي جميل» بمبنى إدارة الأمن العام، وكان سجن الفرن قد امتلأ بالشبان كما امتلأ بهم مبنى الأمن العام الذي كان يسمّى «الحميدية».

وعلي جميل رجل طيب، فما كان يحب سجن الشباب ولا تغريمهم، فالناس كانوا في أزمة وحاجة، فكان بعد اليوم الأول من تنفيذ قرار الحكومة بحق من يحلقون لحاهم يتصرف تصرفاً حكيماً وحسناً، إذ اشتهر علي جميل بذلك، فكان يتسلم الشبان ويطلقهم بعد نصحهم بإعفاء اللحية.

زرت الأستاذ طاهر زمخشري ورآني حليقاً فقال: «ألم تسمع الأمر الذي صدر على من يحلق ذقنه؟» قلت: «بلى». قال: «إذن، سيقبضون عليك، فإما أن تدفع الغرامة وإما أن تدخل السجن ثلاثة أيام».

قلت له: «واللّه، لن تفرح الحكومة مني بهللة، وقد ألفت السجن، فليأخذوا ثلاثة الأيام مني سجناً». وضحكنا وضحك الزملاء، وحيّوني بالشاي، فإذا رئيس حرس حي المسفلة ومعه شرطيان يقتحمون مطبعة الحكومة، ويقول لي رئيس الحرس: «إنك مطلوب عند مدير الأمن العام»، فسألته: «أتعرف السبب»، فأقسم بربه أنه لا يعلمه!.

ومضيت معهم إلى وكيل مدير الأمن العام وهو نفسه مفوّض القسم الإداري، واسمه علي جميل، وهو إنسان طيب وديع ولطيف ونظيف، وكان كما خُيِّل إلي في الثلاثين من عمره، وقال: «تفضل»، فتفضلت بالجلوس على كرسي بجانبه فقال لي: «إنك ستسافر - الآن - إلى نجد، إلى الرياض، لتقابل جلالة الملك».

وبينا أنا عند علي بك جميل علم محمد خياط والسيد بكر مُذْهر فجاءا، كما أن الأستاذ طاهر زمخشري أخبر تليفونياً بعض الأقارب والأصحاب بحادثتي، وكان ابن خالي عيسى ديوان موظفاً بإدارة الصحة بمستشفى أجياد ومضى إليه طاهر زمخشري وأخبره فأسرع ابن خالي إلى أمي وإخواني يخبرهم الخبر.

وسألت علي بك جميل فأجابني أنه لا يعلم شيئاً وكل ما لديه من علم أن مدير الأمن العام أعلمه بأنني مطلوب إلى الرياض، وأمره بالبحث عني وإحضاري إليه، ولا يعلم السبب.

ومضى علي بك جميل وصحبني معه إلى مدير الأمن العام مهدي بك، وذكر لي ما ذكره علي بك جميل، وسألته عن السبب فأجابني أنه لا يعرف، وكل الذي يعرفه أنني مطلوب من جلالة الملك.

وسألته عن الطريقة التي سأسافر بها وعمن يصحبني، فقال: «ستسافر الآن، والسيارة مُعَدَّة، وسيصحبك هذا الرجل» - وأشار إلى بدوي طويل القامة يرتدي الملابس المدنية - ثم أخذ مهدي بك يُطَمْئن خاطري، ويؤكد براءتي، وأنه لا شيء في الأمر.

ثم سأل مدير الأمن العام من سيرافقني عن الطعام والشراب في الطريق وقد كان طويلاً ومتعباً ويستغرق أياماً أربعة أو خمسة، فأجاب: «إن وزارة المالية قد هيأت كل نفقات الطعام والشراب».

واسم هذا المرافق «مسفر بن جَلاَّن» وكان يُكلَّف بمثل هذه المهام.

وكانت السيارة التي تقلنا إلى الرياض تنتظر خلف مبنى دار الحكومة، وكان الوقت بعد صلاة الظهر، وقد حان موعد انصراف الموظفين.

وأحسست أن الأمر ليس سهلاً، ووراء الأكمة ما وراءها، وساورني القلق وإن كنت أتجلَّد، كما ساورني الهمّ، فعندما كنت سجيناً في بلدي وبين أهلي وعشيرتي وأصدقائي كان السجن قاسياً شديد القسوة علي، فكيف وأنا منفي بالرياض؛ سجين مع قوم لا نتفق معهم طباعاً وأمزجة؟

على أي حال لا أملك غير الإذعان والاستسلام لما قدَّره اللَّه وكتبه علي، والصبر خير زاد، والجَلَد ضرورة، لأن إظهار الخوف والأسى والاضطراب لا يغير من الأمر شيئاً.

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ

فمن العار أن تكون جبانا

وهذا بيت للمتنبي، وقد صدق، فلأستقبل ما قُدِّر علي بالصبر والشجاعة والابتهال إلى اللّه.

ومضيت إلى السيارة فإذا أخوتي الكبار الثلاثة وأخواي اللذان يصغرانني وأهلي وأقاربي وأصدقائي، واجتمع باجتماعهم أناس كثير من الموظفين والمارّة، وكنت معروفاً عند أكثرهم.

وبينا أصافح المودِّعين أقبلت والدتي يصحبها ابن خالي عيسى ديوان، فما كادت تراني وتعلم أنني مسافر إلى الرياض إلا وألقت نفسها عليّ تضمّني بكل قوة لا تريد أن تتركني لهؤلاء الذين يريدون أخذي منها إلى الرياض، وأخذت تبكي بكاء يتفطَّر منه القلب.

وأثّر المنظر في الناس جميعاً، وكنت أطيِّب خاطرها

وأقول لها: «إن الأمر سهل، وليس عليَّ أي أذى من هذا السفر!» ولكنها لم تطمئن وما تركتني إلا بعد أن جاء إخواني وأقربائي من ذوي محارمها يطيبون خاطرها ويطمئنوها، وقلت لها: «يا أمي، لا يفيدني بكاؤك فادعي اللَّه لي أن يكون معي، ويردني إليكِ سالماً غانماً بمشيئته وكرمه».

وقبَّلت يديها ثم انكفأت على قدميها أمطرهما بقبلاتي، وودعتها وركبت السيارة وعيناي معلقتان بها حتى اختفت السيارة عن أنظار المودعين.

لو كان الإنسان مسافراً برضاه لهان الأمر هوناً، ومع ذلك يحزنه فراق أهله ووطنه، فكيف وهذا المسافر يسافر مُجْبَراً؛ يسافر إلى السجن والمنفى.

وكان سائق السيارة من مكة، فلم يتمالك نفسه من التأثر لمنظر أمي وعويلها من الحزن وتذراف الدمع ووجه يعبِّر عن حزنٍ صادق.



في الطريق إلى المنفى

- 1 -

سارت بنا السيارة ولم يكن بها غير السائق وغيري وغير ذلك العملاق «مسفر» الذي أوكلت إليه مرافقتي إلى الرياض.

وانتهت السيارة إلى جرول آخر مكة من جهة الغرب، ولا عمران بعد جرول.

وأخذت السيارة بعض الأمتعة ثم انطلقت في سرعة إلى حي «المعابدة» في أعلى مكة حيث ينتهي العمران، وفي هذا الحي قصر الملك عبد العزيز ويُعرَف بقصر السقاف، لأن صاحبه الذي بناه يسمى السيد السقاف أهداه إلى جلالته، وقد اختار السيد السقاف السكن بسنغافورة، وله بها أملاك ومزارع، وكذلك له في أرض جاوة، وهو من الدُّعاة الإسلاميين الكبار في جنوبي آسيا.

وكانت تنتظرنا سيارة أخرى بالمعابدة وبها حوالي عشرة رجال أو أكثر، انتقل بعضهم إلى سيارتنا وانطلقت السيارتان، في المقدمة السيارة التي نحن بها، وأخذت تنهب

الأرض نهباً، وبدأت بيوت مكة تختفي كما اختفت كل أعلامها، وتسلمنا الطريق القفر المحصور بين الجبال.

واختفت عنا جبال مكة إلا جبل النور الذي به غار حراء حيث كان يتحنَّث به الرسول صلى اللَّه عليه وسلم قبل النبوّة، وبهذا الغار نُبِّئَ عليه الصلاة والسلام ونزلت عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ **[العلق: 1]**.

ثم اختفى جبل النور أيضاً وبذلك اختفت مكة، وما أدري إذا كانت لي رجعة إليها، وإن كنت ابتهلت إلى اللَّه جلّ جلاله ألا يجعله آخر العهد ببلده الأمين الذي أكرمني بالولادة فيه وأنعم عليّ فجعلني من سكانه وجيران بيته المعظَّم، وأن يردّني إليه سالماً غانماً مُعَزَّزاً مكرّماً.

اختفت كل معالم مكة وجبالها فلا نسمع لخيلها تصهالاً، ولا لجِمالها رغاءً، ولا نرى حمام رب البيت الذي لا يُرَى خارج حدود الحرم إلا في بقعة التنعيم التي اعتمرت منها أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها في حجة الوداع، ثم كانت مُعْتَمَراً للمسلمين وبخاصة أهل مكة ومن يكون بها من الحُجّاج والمقيمين فيها.

وتسلمتنا أودية وجبال في الطريق من مكة إلى الطائف، خلفناها وراءنا لنستقبل أودية وجبالاً أخرى تصير خلفنا لنستقبل ما يجدّ منها وهكذا.

وكانت السيارة تسابق الريح التي انتقمت منها بإثارة غبار كثيف يحجب الجبال التي خلفناها وراءنا.

وقابلتنا في الطريق قرب الطائف قوافل من السيارات نشد عنها مسفر بن جلاّن فعلم أنها موكب معالي الشيخ عبد اللّه السليمان وزير المالية الذي قدم تلك القوافل وتأخر عنها لتنتظره في أحد المحاطّ بين الطائف ومكة، فقد أوشك الصيف على الانتهاء أو انتهى وبدأت طلائع الشتاء فاضطر المصطافون إلى العودة إلى مكة وجدة، والفرار من برد الطائف.

وعندما دخلنا الطائف بعد المغرب توجه مسفر بن جلان نحو قصر الشيخ عبد اللّه السليمان الذي كان بسيارته، فلما رآنا أمر سائقها بالوقوف، وخرج منها، ولما رآني - وكان يعرفني من قبل - عجب، وسلمنا عليه، ثم أخبرته خبري فوعد خيراً؛ وأمر مسفر بن جلان بالعناية بي، وكانت في السيارة التي تلي سيارة معاليه ابن أخيه ووكيل وزارة المالية الشيخ سليمان الحمد وكان زميلي في المدرسة، ووقف معي دقائق ثم ودّعني وسار بسيارته يدرك سيارة عمه.

وتوجّهنا أو توجه بنا مسفر نحو قصر الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية وشقيق وزير المالية ووالد الشيخ سليمان الحمد، وكان سعادة الشيخ حمد السليمان يعرفني أيضاً، وتناولنا العشاء على مائدته، وقصصت عليه قصتي، فطمأنني ووعدني خيراً، وأوصى بي مسفراً.

وانضمت إلى السيارتين سيارة ثالثة توجهت كلها إلى السوق حيث حُمّلت بها فواكه وخضروات للملك عبد العزيز.

وابتاع السائق - سائق السيارة التي كنت بها - كمية من رمان الطائف وكمثراه وسفرجله، وملأ صندوقاً كبيراً، كما اشترى صندوقاً صغيراً ملأه عنباً، وكان سائقو السيارات من الحجاز ومن مكة المكرّمة، وقد اشترى السائقان الآخران بعض الفواكه.



في الطريق إلى المنفى

- 2 -

غادرنا الطائف بعد صلاة العشاء، وكان الجو شديد البرودة، فالطائف مصيف أهل مكة وجنة الحجاز اليانعة، وعندما يكون الجو في مكة شرفها اللّه لهبا، ودرجة الحرارة تتجاوز الأربعين بأربع درجات أو أكثر يكون الطائف شديد البرودة ولا بد من ملابس الشتاء من أصواف.

غادرنا الطائف ووجهتنا العُشَيْرة أول منزل للذاهب إلى نجد، والطريق من مكة إلى الطائف وعر، وكذلك الطريق من الطائف إلى العشيرة، وكل طرق المملكة صعبة، وما كنا نعرف أن الطرق في أوروبا وفي مصر مسفلتة إلا من الكتب: كتب الرحلات أو من الرحالة وممن سافروا إلى الخارج، وكنا نستغرب من ذلك.

وأخذت السيارات تقطع الأقفاف والخبار والسهل والحَزن، بل لم يكن في الطريق سهل فكله حَزن ووعر، وكانت الأشجار منتشرة في الطريق، وهي أشجار شوك، ومنها أشجار ظل بلا ثمر، وكانت هذه الأشجار في الطريق

تعد من نِعَم اللَّه إذ يكون المقيل في ظلها لطيفاً ومريحاً، وكنا وكان كل من يسلك هذه الطريق يتخذ من أشجارها حطباً يطهو به الطعام أو يستدفئ به أو يستظل بظلها.

وكانت الأشجار تتراءى لنا كالأشباح تتحرك وتستوفز للوثوب، وزادت الرهبة من ضوء القمر الذي يطيل ظل الأشجار، وتحرك الريح أغصانها فيتراءى للناظر أن أشباحاً تتحرك وتزحف، ولولا أن السيارات قوية وسريعة، وتحمل جماعة لكان الرعب مسيطراً.

وغير البدو لا يألفون مثل هذه الطرق الموحشة المخيفة التي لا يرتاح إليها المتحضرون.

وبعد جهاد أربع ساعات من السير السريع الذي يشبه الطيران وصلنا العشيرة، أما أنا فقد كنت متعباً، فما ألفت مثل هذا السفر المضني، وكان الزمن أول الخريف وكان البرد قارساً.

وما كادت السيارات الثلاث تقف حتى قفز منها رفاق الطريق، وانتشروا وجمعوا كومة من الحطب أشعلوا فيه النار للتدفئة، واستغرقتُ من التعب في نوم عميق.

وصحونا في الصباح وصلينا الفجر جماعة، وكانت النار مشتعلة وأفطرنا وشربنا القهوة النجدية والشاي، ووضعنا أمتعتنا وفرشنا في السيارات إيذاناً بالرحيل.

والعشيرة أرض فسيحة مزدحمة بالأشجار، بل العشيرة بهذه الأشجار غابة كثيفة، وكانت مرتع الظباء قبل انتشار

السيارات، وبها نقيعان[1] غزيران ماؤهما عذب حلو، وينزل الملك عبد العزيز بالعشيرة في طريقه إلى الحجاز ومكة وعند عودته منهما إلى نجد، ويطيل بها الإقامة أياماً تبلغ أحياناً نصف شهر.

وينزل بنزول ابن سعود جيشه وحاشيته وأزواجه وأولاده، لأن جو العشيرة صحي، وفيها شجر كثير، والماء وافر.

وموكب ابن سعود في مَقْدَمِه للحج ومنصرفه منه يزيد على ألف سيارة، وما ينزل منزلاً إلا ازدحم بالبدو والقبائل القريبة منه يقصدون ابن سعود رجاء هباته السخية، فهو يصحب معه بدر الفضة والذهب، وملابس وعباءات يوزع منها على هؤلاء الذين يقصدونه، ويعطي كلاً منهم حسب مركزه وخدماته.

وهذه الهبات علاوة على ما خصَّص للقبائل وشيوخها من رواتب، فابن سعود متلاف للمال، لا تستطيع يده أن تمسك منه شيئاً.

وابن سعود عند البدو إذا مرّ بأرضهم ربيع مغدق، وعيد مشرق، يكثر فيهما الخير والسعة والرزق.

وأما نحن فلم نَقْضِ بها غير ساعات قليلة، وقبل أن تشرق الشمس غادرنا العشيرة متجهين إلى قرية «المُوَيْه»

---

(1) النقيع: البئر الكثيرة الماء، وهو مذكر، والجمع أَنْقِعة.

فوصلناها الساعة الرابعة نهاراً، ولعل المسافة التي قطعناها بين العشيرة والمويه بسيارتنا القوية الجديدة حوالي أربع ساعات،وكان بعض الطريق رملياً، فكانت السيارة تخوض تلالاً رملية، وأحياناً تغوص في الرمل، فينزل الركاب ويدفعون السيارة بعد أن يكونوا قد وضعوا تحت «كفراتها» ألواحاً من الصاج، وأحياناً يضعون أغصان شجر الشوك حتى تستطيع السيارة أن تتخلص من الرمل.

ودخلنا المويه في الساعة الرابعة، وهي قرية كل سكانها من البدو، ومَنْ سواهم يطيق الإقامة في مثل هذه الأراضي؟ وفي المويه حوانيت بدوية، بها سجائر وأقمشة مما يصلح للبدو ونسائهم، ومعلبات وسكر وشاي وحمص وتمر، وأسعارها عالية، فما ثمنه بمكة المكرمة قرش يكون ثمنه في المويه عشرة.

ورأيت أكواخاً متناثرة، بعضها قائم، وبعضها مُقوَّض، وبالقرية آبار ماء إذ لولاها لما سكنها أحد.

وجلست في ظل السيارة، ونزل مسفر ورفاقه واشتروا خروفاً وذبحوه وأخذوا يطهونه، قطعوا الخروف قطعاً كبيرة، فالكتف قطعة، وكل فخذ قطعة، وألقوا باللحم في قدر كبيرة مليء نصفها ماء، حتى إذا نضج اللحم أخرجوه، ووضعوا على مرقته أرُزّاً، فإذا نضج وضعوه في صحن كبير مستدير يبلغ قطره أكثر من متر، ووضعوا على الأرُزّ اللحم، ونسيت أن أذكر أن الأرزّ يكون أقرب في هذه الطبخة إلى العجين،

فيضعون عليه السمن البلدي يمزجونه به مزجاً ثم يضعون على الأرز اللحم.

وأهل الحجاز المتحضرون يطبخون هذه الطبخة، وتسمى عندهم «السليق» أو «العربي» وطهي الحجازيين أنظف وألذ، ويسكب طُهاة الحجاز على الأرزّ حليباً فيزداد به نضجاً، ويزداد طعمه لذة، ويطيب نكهة.

تناولنا غداءنا ثم شربنا الشاي، وأخذ القوم يستعدون للرحيل، فصعدت إلى السيارة وأخذت مكاني وبدأت أدخن وأفكر في أمري، لماذا يطلبني الملك؟ لا شك أن أمري قد بلغه، إذ يجوز أن قنصله بمصر كتب إليه بخبري فأمر بإشخاصي إليه، واستهولْتُ الأمر، وأدركت أنه خطير، وليس سهلاً، فالملك عبد العزيز لا يتساهل في السياسة، ولا يتهاون مع من ينتقد سياسته أو يعاديه، وأنا لم أنتقد سياسته ولم أُعادِه، ولم أنشر شيئاً ضده بصحف مصر، ولكن ما حيلتي إذا نقل إليه قنصله الاتهام الذي وجَّهه إليّ ونفيته عندما «استجوبني» بمصر، وأثبتُّ له براءتي.

والقنصل السعودي في القاهرة لم يكتب للأمير فيصل ولا للملك عبد العزيز بعد فصلي من البعثة وإعادتي إلى مكة غضباً عني، وإنما مراقب البعثة هو الذي قرر فصلي وإعادتي، وكتب إلى مدير المعارف بتهمتي الباطلة على أنها واقعة وصحيحة حتى يستغل الفصل والإعادة، واستشهد ببعض زملائي من أعضاء البعثة.

وقدم مدير المعارف تقرير مراقب البعثات إلى سموّ الأمير فيصل نائب جلالة الملك بالحجاز الذي أحاله إلى مدير الأمن العام، بل سلّمه إليه يداً بيد ليحقق بنفسه بالاتهام، ويُداهِم منزلي ويفتشه.

وقد تم كل ذلك، وجرى التحقيق الذي انتهى بتبرئتي، فأطلق الأمير فيصل سراحي، وانتهت قضية الاتهام.

فلماذا يطلب الملك عبد العزيز بإشخاصي إليه في الرياض؟ أترى قنصله بالقاهرة كتب إليه بأمري؟ لست أدري، ولكن، لماذا قبضوا عليّ وأشخصوني إلى الرياض مع رهط من الحراس لو لم يكن الأمر خطيراً؟!.

وتذكرت منع الأمير فيصل لأخي أن يبرق إلى الملك عبد العزيز، لأن سموّه يعرف من أبيه ما لا يعرفه أخي فمنعه من الإبراق إليه حتى لا يتعقَّد الأمر، وتولاه هو بنفسه، فهو يعرفني حق المعرفة، ولكن الملك عبد العزيز لا يعرفني.

أدركت أن الأمر ليس سهلاً، بل خطيراً كل الخطر، وإلا لماذا كل هؤلاء الحراس، إذا نزلنا منزلاً وضعوني تحت أعينهم التي ترى في الظلام، وكانوا يتناوبون على حراستي ليلاً دون أن يشعروني، ولكن لم يفتني إدراك ذلك.

لعلهم كانوا يخشون هربي، فكانوا يراقبونني مراقبة دقيقة في شيء من الفطنة والحذر، وفاتهم أن الهرب في هذه الصحراء أشد خطراً على من لا يعرف مسالكها التي يضل فيها الخِرّيت، وما أكثر ما ضلَّ الدليل الحاذق في هذه

الصحارى، وإنَّ هرب إنسان مثلي في صحراء يجهل مسالكها المجهولة انتحار.

وغادرنا المويه إلى الدَّفينة، ولا ضرورة إلى تكرار ذكر الطريق بين منزل وآخر، فكل الطريق غاية في الوعورة.

غادرنا المويه الساعة السابعة بعد الظهر متجهين إلى الدفينة، ووصلناها بعد ساعتين، أيْ وقت العصر، وصلينا جماعة، واتفقنا على أن نستريح بها ونتناول فيها عشاءنا، وطهيا الطاهي العشاء ولم يكن غير السليق، اشترى مسفر خروفاً ضخماً سميناً، وشبعنا من اللحم وزاد منه فأخذناه معنا وبعد صلاة المغرب غادرنا الدفينة إلى منزل اسمه «عفيف» وهي قرية صغيرة مثل سابقتها، وقررنا أن نبيت بها.

ولما فرشت فراشي استعداداً للنوم جاءني السائق برمانة وسفرجلة وكثمراة، فتناولتها شاكراً له فضله، ثم نمنا، وصحونا فجراً وصلينا جماعة، وأفطرنا، فقد صنعوا خبزاً من الحنطة النقية على الجمر، وكان شهيّاً ولذيذاً، وكان السائقون قد احتاطوا للسفر وأحضروا معهم أنواعاً من الحلوى يسمى «الطحينية» و«الهريسة» و«اللبنية» وأتوني بشيء من الطحينية فكان الإفطار طيباً والحمد لله، ثم تناولنا القهوة فالشاي وركبنا سياراتنا التي أخذت تنهب الأرض وتسابق الريح فتسبقها.

وكنت أرى على جانبَيْ الطريق على بُعد عشرات الأمتار قطعان الغزلان تفر من السيارات، كما رأينا قطعان الأرانب

والثعالب هاربة من هذه السيارات التي لم يكن لها بها عهد من قبل.

ولولا أن القوم في مهمة رسمية لتمتعوا بالصيد، ولكنها شغلتهم عنه، وتذكرت بيت أعشى بكر بن وائل:

فـوق ديـمـومـة تُـخـيِّـل لـلـسَّـفـ
ـر قــفــاراً إلا مــن الآجــال

تقول مفازة ديمومة؛ أي دائمة البعد، ومعنى البيت أنه سار في مفازة تخيل للمسافرين أنها قفر إلا من بقر الوحش والظباء.

وصدق الأعشى فقد كنا نطير بسيارتنا فوق ديمومة قفر إلا من الآجال وهي بقر الوحش والظباء، ونحن لم نرَ بقر الوحش وإنما رأينا قطعاناً لا تُحصى من الظباء!

أما الأرانب والثعالب فكنا نراها ليلاً، وكانت الأرانب لا تُحصى لكثرتها أيضاً.

وسارت السيارة بسرعة أقرب إلى الطيران السريع، بل كانت تسبق الطيور دون مراء، ومررنا بأرض تسمى «القاعية» بها بئر ماء، ولم نرَ بها إنسياً، وكانت المسافة بين الدفينة والدوادمي ست ساعات بسرعة السيارة، ولم نرَ خلال هذه المسافة بشراً، بل كانت صحراء موحشة إلا من الظباء والأرانب والثعالب، وكل هذه المسافة لا ماء بها إذا استثنينا القاعية التي لم نجد بها إنسياً فاجتزناها مسرعين، وكأنها أرض مغضوب عليها، وواصلنا السير إلى الدوادمي التي

وصلناها بعد ست ساعات لم تقف السيارة خلالها دقيقة، بل كانت تطير بأقصى ما لديها من سرعة وقوة.

والدوادمي قرية بها حصن، وفي وسطه بئر حلوة، وفيه غرف كثيرة، ورأيت على بُعد أرضاً واسعة مخضرة، قيل لي إنها أرض مزروعة ذرة وحبوباً أُخَرَ.

وبالحصن جهاز لاسلكي من طراز ماركوني الممتاز، فالملك ابن سعود ربط كل أجزاء مملكته المترامية أطرافها باللاسلكي، فلا يفوته العلم بكل ما يجري على أرضها من حوادث.

ويعمل على هذا الجهاز شاب سعودي يدعى «حماد العبدلي» كان عضواً بالبعثة السعودية بمصر قبل البعثة التي كنت فيها، ثم انفرط عقدها لأسباب مالية، واشتغل «حماد» بالميكانيك، وبرع في اللاسلكي، وتعلم التحدث بالبرق، فعُيِّن مديراً للاسلكي الدوادمي.

ويحوي الحصن البريد واللاسلكي وسجن القرية ومستودع البنزين.

وما كاد هذا الشاب المثقف الفاضل حماد العبدلي يراني حتى أسرع إليّ وصحبني إلى غرفته النظيفة المفروشة ببساط وفي أحد جوانبه فراش وثير، ورحّب بي أعظم ترحيب، ثم صنع إبريقاً من الشاي وأخذ يصب لي فنجاناً بعد فنجان حتى أفرغنا الإبريق، وشكرت له كرمه.

وتبادلنا حديث الذكريات في مصر، وأخذ كل منا يروي

لصاحبه أجمل ذكرياته، وكانت مصر بالنسبة لنا نحن العرب، ولكل العرب، جنة الدنيا وأعظم أقطارها، وكان العرب في كل أقطارهم عالة على علم مصر وأدبها وثقافتها وفنها وكتبها وغنائها وصحفها ومجلاتها.

وأشار عليّ الأستاذ حماد العبدلي أن أغتسل وأنام حتى يحين موعد الغداء، وقبلت مشورته، فقد اغتسلت وتنظَّفت ونشطت ثم نمت نوماً عميقاً، إلى أن أيقظني فتوضأت وصليت الظهر والعصر قصراً وجمعاً، ثم أحضر الغداء الذي طهاه هو نفسه على حسابه، وكانت مائدته من بضعة ألوان فيها: الأرُزّ، ونوع من الخضراء باللحم، ولحم مُعَرَّق، وهو أن يوضع السمن ويُفْرَمَ فيه البصل فإذا احمرّت أُلْقِيَ عليه اللحم قِطَعاً صغيرة حتى إذا احمرّ من القلي دُوِّم[1] بعصير الطماطم، فإذا غلا وضع في القدر «البهارات» ليطيب طعماً ورائحة.

هذا هو «المُعَرَّق» عند الحجازيين المتحضرين، ويحسنون طهيه، ويتغنون فيه.

والحق، أن الأستاذ حماد العبدلي طاهٍ ماهر، فهو يحسن كثيراً من الأمور يضاف إلى حُسن أخلاقه وكرمه.

وكان أهل الحصن ومعهم حماداً اشتركوا في ذبح خروفين وأضافونا، ورأى الأستاذ حماد الذي عاش في

---

(1) دُوِّمَ: سُكِّنَ غليان القدر بالماء.

الحجاز طويلاً أن يبالغ في إكرامي فأخذ شيئاً من أطايب اللحم وطها المعرق كأهل مكة والمدينة وجدة الذين برعوا في طهيه.

واحتفل أهل الحصن بي، ورجاني أحدهم أن أزوره في غرفته وأشرب عنده الشاي، فلبَّيْت دعوته، وما كدت أنفذ من الباب حتى فوجئت بمكتبة صغيرة لديه، تحوي مؤلَّفات للعقّاد والمازني وطه حسين وهيكل ودواوين شعر لشوقي وعبد الرحمن شكري، وقصصاً عالمية مترجمة، وعجبت من وجود هذه المؤلفات الحديثة التي بينها بعض مؤلفات سلامة موسى، فالداعي شاب بدوي، وما أدري كيف هَوِيَ الأدب الحديث.

وفي غرفة الأستاذ حماد مكتبة تحوي كتباً قديمة وحديثة وصحفاً لم أستغرب وجودها لديه، فهو مثقّف وعاش في مصر، ودرس بها، وإنما العجب من ذلك البدوي الذي تضم غرفته تلك المكتبة العصرية النفيسة، وأمطرني وابلاً من الأسئلة في الأدب والأدباء، وكنت معروفاً لديهما، فقد كان لدى كل منهما أول مؤلف لي المسمى «كتابي» الذي طبع على نفقة الأمير فيصل بمطبعة أم القرى سنة 1354هـ (1934م).

قضينا في الحصن مع الأستاذ حماد العبدلي وبعض رفاقه وقتاً طيباً ممتعاً.

وبالغ الأستاذ حماد في إكرامي فبعث «برقية» إلى مكة

باسم أخي الأكبر بدكان والدي بالشارع اليوسفي يخبره أنني بخير وفي صحة جيدة.

وبعد صلاة العصر ودّعنا هؤلاء الكِرام وأخذنا أماكننا من السيارات الثلاث وودّع بعضنا بعضاً، واتخذنا الطريق إلى «خُفّ» ووصلناها والشمس تنحدر إلى المغيب، وكنا قد قررنا جميعاً من الدوادمي المبيت بخُفٍّ.

وفوجئنا بوجود موكب لم نعرف مَن صاحبه، فقد رأينا بضع سيارات بينها سيارة صغيرة فخمة، ورأينا بساطاً فارسياً على جانبيه «مراتب» عرضها نصف متر تقريباً تسمى بالحجاز «كيّانات» وسألنا فعلمنا أن سيد هذا الموكب الشيخ محمد الطويل مدّ اللّه في عمره.

وقدَّمت له نفسي ففرح بلقائي، ودعاني أنا وكل من كانوا معي أو على الأصح كنت معهم للعشاء ضيوفاً فقد كان معه طباخ ماهر.

ولما كنت في هذه الذكريات لا أترجم للأفراد فإنني لا أستطيع أن أطوي الصفحات دون الإشارة إلى هذا الرجل الكريم العظيم المشهور بمكارم أخلاقه التي ضرب بها المثل في الحجاز وعرف بها الشيخ محمد الطويل في غير الحجاز من المملكة السعودية.

كان في عهد الشريف الحسين ملك الحجاز الأسبق يشغل الشيخ محمد الطويل منصب «ناظر عموم الجمارك» وكان مقرّه بجدة، وكان من رجال الشريف الحسين وأقرب

المقرَّبين إليه، بل كان الإجماع منعقداً على احترامه من الشريف وأبنائه ومن رجال الحكم والتجار والشعب، وما كان في الحجاز في ذلك العهد رجل محبوب من الناس مثل الشيخ الطويل.

وأول ما طرق اسمه سمعي كان سنة 1342 عندما نشبت الحرب بين الشريف الحسين والملك عبد العزيز، وبدأت الحرب بمذبحة الطائف الشهيرة التي حملت أهل مكة على الفرار إلى جدة عندما تنازل الملك الحسين لابنه الشريف علي وسافر إلى جدة، وتسلّم الحكم الشريفُ علي وصار ملك الحجاز.

وكان خالي يصيِّف بأسرته بالطائف - وكانت لديه أربع زوجات - وشهد المذبحة وكاد هو نفسه يكون من ضحاياها لولا لطف اللّه، فلما عاد مع العائدين من الطائف إلى مكة نصح أبي بأن يرحل إلى جدة، لأن السعوديين دون شك داخلون مكة بعد احتلالهم الطائف وهزمهم الجيش الهاشمي في الهَدَى، وفرار الشريف علي إلى مكة.

وقرر أبي أن يبقى هو وحده بمكة لا يغادرها، وسمح لوالدتي ولأولاده بالسفر إلى جدة، وفرَّت آلاف الأُسَر إليها مخافة أن تتكرر مذبحة الطائف ببلد اللّه الحرام.

وكان في جدة وكيل أبي وبعض أصدقائه، فنزلنا بدار أعدها لنا الشيخ عبد الرزاق بخش - وكيل أبي - وعلمنا أن الشيخ محمد الطويل أخلى مئات الدور لينزلها أهل مكة

اللاجئون، كما اتفق الشيخ الطويل وأعيان جدة على استقبال لاجئي مكة المكرّمة.

ويذكرون في تاريخ الشيخ الطويل الذي لم يُدَوَّنْ وإنما تتناقله الألسنة والمجالس أنه اشترى من ماله الخاص «أرزاقاً» وزّعها على اللاجئين، كما وزّع عليهم نقوداً من ماله وليس من مال الحكومة.

وبهذه المكرُمة العظمى صار الشيخ محمد الطويل محبوباً من جميع الناس، وعندما غادر الشريف علي جدة بعد الصلح مع الملك عبد العزيز بقي الطويل في جدة.

ولما دخل الملك عبد العزيز جدة واستتب له الأمر قابله الشيخ محمد الطويل الذي كان معروفاً بمكارم أخلاقه لدى ابن سعود المعروف عنه تقدير الأبطال وتكريم الرجال فاستقبله بترحاب وشكره على ما صنع للناس عندما كانت جدة محاصرة وكادت المجاعة تفتك بمن فيها لولاه.

ورأى الملك عبد العزيز أن يبتعد الشيخ محمد الطويل عن الحجاز بعد أن اعتذر عن الوظائف، واختار سكنى الأحساء، فأعطاه الملك عبد العزيز بها قصراً ومزارع، ورتّب له كل شهر مبلغاً ضخماً يتسع لكرم الشيخ الطويل وسخائه وأريحيته.

وكما أخلص للحسين فإنه أخلص لابن سعود حتى أحبه وقدَّره حق قدره.

ولم يكن الشيخ الطويل مُجبَراً على سكن الأحساء، بل

كان مُخيَّراً، وعندما تعنّ له زيارة الحجاز يأذن له الملك عبد العزيز ويعطيه أكثر مما يحتاج إليه.

وفي هذه المرة وَكَل إليه ابن سعود أن يكتشف طريقاً سهلاً بين الأحساء والرياض وبين الرياض ومكة في طريقه إلى زيارة الحجاز وجدة.

وكانت مع الشيخ الطويل حاشية كبيرة وخدم وحشم، وكان يدخن «الشيشة» وقضيت معه سويعات نعمت فيها بحديثه الممتع، وذكر لي أنه سمع بسجني بمكة، وأفصحت له عن مخاوفي فطمأنني.

وكان في حاشية الشيخ شاب يسمى «سليمان بيطار» يعرفني وإن كنت لا أعرفه، ويعرف إخوتي، وعرض بعض ملابسه، فشكرت له صنيعه وذكرت له أن لدي ما يزيد عن حاجتي.

وبعد العشاء أخذنا مضاجعنا، وصحونا الفجر وصلينا جماعة، ثم أفطرنا على ضيافة الشيخ الطويل، وتهيأت سياراتنا الثلاث للانطلاق فناداني الشيخ محمد الطويل - حفظه اللّه وأطال عمره ورعاه - وعرض علي المعونة المالية جنيهات ذهبية فاعتذرت له وشكرته على كرمه وفضله وضيافته، وقلت له: «خير من هذه المنحة أن تبعث إلى أخي رسولاً يخبره خبري، وأني بخير»، ووعدني.

وعلمت فيما بعد أنه مضى بنفسه إلى دكاننا بالشارع اليوسفي ووجد أخوتي الثلاثة وطمأنهم، وشرب لديهم الشاي والشيشة.

لست - كما قلت - في هذه الذكريات أكتب ترجمة الأشخاص، ولهذا اختصرت القول في الشيخ الطويل، وإلا لو أردت أن أوفيه أو أوفي الشيخ محمد سرور الصبان حقهما لكانت كل هذه الصفحات أقل من أن تتسع لغير العناوين وبعض الفصول.



في الطريق إلى المنفى

- 3 -

عندما ألقت الغزالة التي لا ندري أكانت نافرة أم هادئة أشعّتها الذهبية على الكون، فبدت قمم الجبال التي زيّنتها الأشعة وكأنها ترتدي قلانس حريرية صفراء، وتنطلق العين في هذا الفضاء الذي لا تُرى أطرافه، وترى تلك الأشجار البرية المخضرة في إكبار وإجلال وإيمان بقدرة الخالق العظيم.

في هذا الجو كانت السيارة تجري إلى مستقر لها تريد أن تصل إليه فتتحدى الريح العصوف سباقاً، وتلال الرمال ووعورة الطريق كبرياء.

صورة رائعة من صور الشعر، بل لوحة فنية تخلب الألباب والعيون ولا يُمَلُّ النظر إليها مهما أطيل دوامه، لأن البلى لن تصل إليها؛ ولأن من أبدعها هو بديع السماوات والأرض!

إن في كل مشهد من مشاهد الطبيعة حتى الجبال والصحراء لَجَمالاً أخّاذاً، فما رأيته في هذه الصحراء من الجمال والروعة يشغلني عما أنا فيه من الهم والكرب

والضيق، وشعرت بما شعر به الشاعر المغربي الذي وقف بين يدي شلالات نياجرا فأرتج عليه، واختفت المعاني والخواطر التي لا تحصى وكان يريد أن ينظُمَ بعضها شعراً، فلما وقف بين يدي الشلالات بددت روعتها كل تلك المعاني والخواطر فلم يبقَ في خزائن مشاعره شيء، حتى الكلمات التي كان من كبار أثريائها لم يجد منها إلا كلمة واحدة أخذ يهتف بها في شعور يساوق تدفق الشلال: نياجرا! نياجر!

هذا كان هتاف ذلك الشاعر، أما أنا فإن قلمي مهما أوتي البلاغة والبيان لن يستطيع تصوير هذه المشاهد وأمثالها، وهتفت من أعماق قلبي: اللّٰه أكبر!

كانت المشاهد رائعة تطويها السيارة لتستقبل سواها، ولم يُنْسِنا تعب الطريق أن نحسّ كل هذه الروعة إحساساً ممتعاً.

ولقد اعترض طريقنا إلى مَرات قسم من صحراء النفود المكوَّنة من تلال الرمال أو كأنه بحر من الرمل، وهي صحراء جدُّ عسيرة وجدُّ متعبة للسيارات وسائقيها وركابها، وجَهِدَت السيارات حتى إنها لتعوي عواء الكلاب المتعبة، وتغوص في الرمال فنشترك جميعا بألواح «الصاج» نضعها تحت عجلات السيارة فتمر عليها ثم تغوض فنعيد ما سبق عمله، ويتكرر ذلك منا ومنها حتى نجونا من الرمال.

وبدت لنا مرات فابتهجنا ومنَّيْنا أنفسنا بطيب المقيل، فقد رأينا أشجاراً وأرضاً خضراء، وهبّ علينا نسيم عليل صحّت منه أجسامنا المكدودة.

ووصلنا مرات ونزلنا بإحدى حدائقها المزدانة بالسرو والزهر والنخيل، وبها بئر حلوة غزيرة الماء، وتفيأنا ظلال دوحة باسقة ذات ظل ظليل، وأخذ أحد السائقين يصنع لنا الشاي، أما مسفر ورفاقه فقد اشتغلوا بأمر الغداء، وأخذ السائقون يحدثونني عن رحلاتهم السابقة المضنية، زاعمين أن رحلتهم هذه من حُسن حظي - كما زعموا - كانت مريحة وسهلة لا أيْن فيها ولا نصب، وقصّوا عليّ ما رأوا وأحسوا في رحلاتهم السابقة في قفار الحجاز، وصحارَى نجد ورمال الأحقاف من المتاعب والمناظر والأطلال الدارسة، وقال سائق السيارة التي كنت أركبها أنه مر بديار كانت مواطن قبائل تركوها فاستحالت طللاً ينعى من كانوا بها، ولا تجد فيها نافخ نار - الآن - ولا ترى بها ذا روح غير وحوش ضلت طريقها فجاءت إلى تلك المواطن.

وكنا نشكو الجوع، وكانت على مقربة منا فتاة عميمة[1] بدوية جميلة سمعت شكوانا فجاءتنا بتمر نظيف ممتاز وبجبن جاف غليظ (مضير) وكنت من قبل لا آكل التمر إلا في رمضان عندما نفطر ونشرب بعده ماء زمزم المبارك إذا صمنا بمكة أو الطائف، فقد كان أصحابنا وأهلنا بمكة يبعثون إلينا في أواخر شعبان بصفائح منه ثم يوالون الإرسال كل أسبوع في رمضان.

وما كنت آكل التمر في غير هذا الشهر الكريم، على أني

---

(1) فتاة عميمة: تامة القوام والخُلق.

ما كنت أتناول غير تمرة أو اثنتين، وإذا أكثرت منه لم يكن غير ثلاث، أما في هذه المرة فقد أكلت من تمر البدوية الحسناء كثيراً، وكان المضير لذيذاً أيضاً.

وذكّرتني البدوية الحسناء ببيت أبي الطيب:

حسْنُ الحضارة مجلوب بتَطْرِيَة

وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب

ودخل وقت صلاة الظهر، فأذّن المؤذِّن من رفاق مسفر لم يعجبني أداؤه، وصلينا جماعة جمعاً وقصراً، ونضج الطعام، فوضعنا في صحن كبير أرُزّاً ولحماً وذهبتُ به إليها وقدّمته لها فتناولته شاكرة، فقد كان الطعام كثيراً، ويكفيها اللحم ومعها أسرتها ثلاث وجبات أو أكثر.

وتغدينا وشبعنا، وما زاد قدمناه للفتاة، ورحنا نتناول الشاي بين حفيف الشجر وتطراب الناعورة.

وشعرت براحة وطمأنينة، ولو كان الأمر بيدي لقضيت بمرات أياماً معدودات، ولكن ها هم أولاء الرفاق قد وثبوا إلى سياراتهم التي دوَّت دوياً مزعجاً، فنهضت وطبَّقت سجادتي التي كنت أجلس عليها وأخذت مكاني، وكانت سيارتنا تتقدم زميلتيها، وما كادت تتحرك حتى هتفت بنا البدوية أن ننتظر، فسمع السائق وأطاع، ودخلت خدرها ثم خرجت وبيدها كيس به تمر وأعطتنيه فقبلته شاكراً، وأخرجت من جيبي ريالين فضيَّيْن ومددت بهما إليها فأبت وحاولتُ فأصرّت على الإباء.

ودَّعت مرات؛ بل ودّعت البدوية الحسناء الكريمة
وأخذت مرات تختفي رويداً رويداً حتى غابت عن أنظارنا...
فمذْ خفيَتْ عنا الطلولُ تلفَّتَ القلبُ...



في الطريق إلى المنفى

- 4 -

اختفت مرات واختفى بعدها ما كان أمامها، حتى إذا ابتعدنا عنها حوالى عشرين ميلاً هبّت عاصفة هوجاء جنّ جنونها، وحجب السماء غبار كثيف، وما نملك أو ما أملك إلا أن أتّقيه بنظارة أعطانيها الصديق السيد بكر مدهر عندما كان يودّعني بمكة عند دار الحكومة، وذكرت السيد بخير هو أهله على هذه النظارة وعلى غيرها أيضاً، فهو أهل للشاكر الجزيل.

وما كادت السيارة تبتعد عن الغبار أو يبتعد عن سياراتنا الثلاث حتى ثار غبار جديد أثارته خيول عربية تطير بممتطيها متجهة صوب الشرق، وسياراتنا خلفها وكأنها تطاردها، ووقفت الخيول أمامنا وأدركناها ووقفنا خلفها، وأبصرنا بساتين وحقولاً وأرضاً معشبة، وأسرع إلينا رجال تدل هيئاتهم على الرِّفعة ودعونا لتناول القهوة والشاي، فلبَّيْنا تبعاً لمسفر.

وأخبرني السائق أن اسم هذا المنزل «العُوَيْنِد» وبُعْدُه عن مرات ساعة ونصف ساعة بسرعة سيارتنا.

وبعد تناولنا الشاي والقهوة غادرنا العويند ووجهتنا الرياض وهي ليست ببعيدة، وبينا سياراتنا تجري بأقصى سرعتها مررنا بقرية تسمى «الجُبَيْلة» وكلها أطلال دوارس، وبدوها يروون عنها أقاصيص غريبة ونوادر عجيبة، فبالقرب منها مواضع كانت - كما زعموا - موطن مسليمة الكذاب لعنه اللّه، وقد أنزل اللَّه على موطنه السخط والعذاب فلم يقطنها بشر بعد أن أهلك اللَّه مسليمة وقومه على يد المسلمين وفيهم من صحابة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من المهاجرين والأنصار رضي اللّهم عنهم، وقتل في خرب ذلك الكذاب سبعون من حَفَظة القرآن من الصحابة الكرام عليهم رضوان اللّه أجمعين.

وبسبب استمرار القتل في حفَظة القرآن ألهم اللَّه عمر بن الخطاب أثابه اللَّه وجزاه عن القرآن والرسول الكريم وعن الإسلام والمسلمين كل خير فرأى جمع القرآن، وذكر رأيه للصدِّيق أبي بكر سيد المسلمين وأمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين فقبل بعد تردد، وحفظ اللَّه القرآن وتحقق وعد اللَّه الكريم إذ قال في مُحَكم كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وفي الساعة الثانية والنصف ليلاً - أي بعد ساعات من أذان العشاء دنونا من الرياض، ورأينا أنوارها، ولم تكن قد دخلتها الكهرباء، فكانوا يستضيئون بمصابيح الغاز، ووصل إلى أسماعنا أنين نواعيرها، ونزلنا على مقربة من الرياض

خارج سورها بضاحية من ضواحيها تسمّى «الشمسية» لأن دخول الرياض بعد إغلاق السور ليلاً ممنوع، وكان يُغلَق بعد صلاة العشاء، فلا يخرج من كان داخل السور ولا يدخل من كان خارجه إلا في الصباح.

وأنزلنا فرشنا لننام حتى الصباح؛ وأنزلت معي كيس التمر والجبن الجاف اللذين أعطتنيهما البدوية الحسناء وأكلت منهما أنا والسائقون الثلاثة ومعاونوهم الثلاثة أيضاً، فقد كان في هذه الأيام لا تسير السيارة الكبيرة إلا ومع السائق معاون يخدمه ويتعلم السياقة منه، وله راتب من الشركة.

وبينما نحن نتناول الشاي وقد استعددنا للنوم ملأ الأفق شعاع وهّاج يخرج من بين الجبال التي رددت صدى أزيز السيارات ودوِّيها.

وصعد بعض رفاقنا إلى سطح حافلة (أتوبيس) كانت بجانبنا يريدون أن يكشفوا سر هذه السيارات المسرعة، والتي لا يُحصى عددها.

وقال لنا أحد الناس: «إنه موكب جلالة الملك عبد العزيز»، وعجب محدثنا وهو من أهل الرياض من عودة جلالته السريعة، مع أنهم تعودوا أن يقيم جلالته بالصحراء إذا خرج إليها خمسة عشر يوماً على الأقل، ولم يدرِ أحد سبب هذه العودة السريعة المفاجئة.

المبيت خارج سور الرياض

ودخولها صباحاً

وكانت الليلة ليلة شديدة البرد، وما أقسى برد خريف نجد، ونمنا حتى الصباح، وصحونا وأدَّينا صلاة الفجر جماعة، ثم تناولنا من ذلك التمر وذلك الجبن الجاف، وشربنا القهوة والشاي استعداداً لدخول الرياض.

وسارت سياراتنا الثلاث في طريق ترابية ولكنها ممهدة وعلى بُعد عشرات الأمتار رأينا أخاديد فاغرة الأفواه أحدثتها السيول العارمة، وعلى الجانبين أشجار النخل الباسقة، ولفت نظري بستان كثيف الشجر، قيل لنا: إنه للسيدة الجليلة «نورة بنت عبد الرحمن» شقيقة الملك عبد العزيز، وكانت لها عنده مكانة عُظمى، وشفاعتها مقبولة، وطلبها - مهما كان - مُجاب.

وهي مشهورة في نجد، واسمها معروف في مملكة ابن سعود الذي كان يفخر ويعتزّ بها قائلاً في مواقف الفخر والبطولة: أنا أخو نورة.

وكان قصرها مفتوحاً للضيوف ليل نهار، ويزدحم بهم على سِعَته، وحبيبة إلى الفقراء والمحتاجين، وعُرِفت

بالتواضع والكرم والسخاء والتديُّن والصلاح.

وعندما وصلنا إلى باب ضخم كبير قيل لنا: هذا أحد أبواب سور الرياض، وقد تحدث مسفر إلى الحراس فأذنوا للسيارات الثلاث، وكنا أول الداخلين، وأخذت أتلفَّت يُمنة ويُسرة أفحص البلد الذي أدخله لأول مرة، فإذا كل البيوت مبنية باللَّبِن، والشوارع ضيقة وكأنها أزقة، إلا الشارع العام فلم يكن ضيقاً كالأزقة، ولا واسعاً سعة الشوارع في العواصم.

ومع أن الوقت كان صبحاً؛ إلا أن الشوارع كانت مليئة بالمارّة، وأهل الرياض يلبسون الإحرام الأبيض والعقال، أو الإحرام الأحمر، وبعضهم يعتمّ، وكلهم يرتدي العباءة.

وانتهينا إلى ميدان ليس رحيباً، وأمر مسفر أن تنتظر السيارات فيه، وأخذ معه ظروفاً عليها روسم (كليشيه) وزارة الخارجية، وظروف من إدارات أخرى مُرسَلة إلى الملك عبد العزيز.

وغاب حوالى ساعة وعاد مسفر إلينا وقال: «الشيوخ لم ينزل بعدُ إلى مجلس الحكم».

ويطلق لفظ «الشيوخ» في نجد على الملك، إذ لا يقولون: صاحب الجلالة، وقلّ أن يقولوا: الملك، وإنما يقولون: الشيوخ وصل، الشيوخ خرج، هو لفظ على صيغة الجمع يستعمل استعمال المفرد.

ورأى مسفر أن نمضي بالسيارة للانتظار قريباً من القصر

الذي كنا في ميدانه، ووقفت عند إدارة شرطة الرياض، وأمرني بالانتظار فيها ريثما يعود.

وبينا أنا واقف أتهيأ للدخول إلى مبنى الشرطة أبصرني حجازي من مكة يعمل مراسلاً في إحدى مدارسها وجاء إليّ مسلِّماً وذكر لي أنه مراسل بمدرسة الأمراء في الرياض، ثم ودّعني وانصرف.

وفي دهليز إدارة شرطة الرياض كان حصير بسطتُ عليه فراشي وجلست أقرأ في كتاب اصطحبته من مكة، وشعرت بلذع الجوع فنحن لم نفطر، وودّعني السائقون ومضوا مع مسفر، فناديت أحد الجنود وأعطيته ريالاً يشتري لي منه خبزاً ويصنع لي شاياً، ويرد الباقي، فقد كان الريال ذا قوة شرائية كبيرة، فأحضر لي ما طلبت، ولم يرد إليّ باقي الريال، فلم أجرؤ أن أطلبه منه مخافة أن ينالني منه ما أكره وأنا غريب في هذه الديار، وكان مما تعلمناه هذه الحكمة: يا غريب كن أديباً.

وكان الخُبْز رديئاً خَبْزه، ولكن الجوع والحاجة، يحملان الإنسان على قبول المكاره والصبر على الخطوب.

وقبيل الظهر - أي في الساعة الخامسة - أقبل عليّ جندي وأمرني بطي فراشي وحمله للمضي معه إلى مكان لم يسمِّه، فطويت الفراش، وقلت له: «لا أستطيع أن أحمله، فنادِ لي من يحمله وأنا أعطيه أجر حمله».

فتطوّع جندي وحمل فراشي، ومشيت معهما في زقاق صامتاً.

إلى المَصْمَك

المصمك حصن منيع، كان ينزله عامل ابن الرشيد على الرياض، عندما كان ابن الرشيد حاكم نجد، وعندما قام ابن سعود بحركته أو ثورته على ابن الرشيد يريد استعادة حكم آبائه وأجداده كان أوّل ما فعل احتلال حصن المصمك وقتْلَ ابن عجلان عامل ابن الرشيد.

وقد حوَّله ابن سعود إلى سجن، وقد حبس فيه من ثاروا عليه من «الغُطْغُط» ممن تبعوا فيصل الدويش وسلطان بن بجاد.

وعندما غادرت إدارة شرطة الرياض مع الجنديين صامتاً لا أدري إلى أين اتجاهنا سألت الجنديين، فلم ينبسا ببنت شفة، وكررت السؤال، فقال أحدهما وهو الذي أمرني بحمل الفراش: «إلى المصمك!».

ولم يكن لفظ المصمك جديداً عليّ، فقد سمعت به، كما سمعت قصته عند احتلاله من قِبَل ابن سعود عندما احتل مدينة الرياض مسترداً حكمها من ابن الرشيد، وكنت سمعت أنه تحول إلى سجن.

والمصمك - كما قيل لي - معناه عند عرب نجد: البناء

المجوَّد الذي لا فرجة فيه ولا ثقب، وفي الفصحى: المُصْمَت: الذي لا جوف له، ويقال: باب مُصْمَت؛ أي مغلق مبهم الإغلاق، وحائط مُصْمَت: لا فرجة فيه.

والمصمك هو السجن الوحيد في الرياض، ويقال له: قصر ابن عجلان نسبة إلى ابن عجلان الذي كان حاكماً على الرياض من قِبَل ابن الرشيد.

وهو حصن منيع، وعندما هاجم ابن سعود الرياض واحتلها لم يستطع احتلال قصر ابن عجلان فقد امتنع عليه، واضطر إلى مغادرة الرياض، ثم أعاد الكرة عليها في الثالث من شهر شوال سنة 1319 وصمّم على احتلال الحصن قبل مدينة الرياض، فتم له ما أراد، وتشبه قصة احتلال الحصن قصص الأساطير.

ولما أجابني الجندي عندما استفهمت منه عن وجهتنا قائلاً: إلى المصمك، وكلت أمري لله سبحانه وتعالى في الغربة وأنا بين يدي الكرب والمجهول لا أعلم شيئاً عن مصيري.

وعندما يحسّ المؤمن بالخطر الذي ليس في مقدور البشر دفعه يلجأ إلى خالقه يدعوه، فأخذت أدعوه في سري، وانتهينا إلى باب ضخم كبير في مبنى كبير خَمَّنْتُ أنه المصمك، وصعَّدت بصري إلى أعلى الحصن فإذا أبراج عالية، في كل ركن من أركانه برج عالٍ به ثقوب لإطلاق الرصاص منها على المحاصرين والأعداء والمهاجمين.

وفُتِحَت خَوْخة على باب الحصن الذي لا يُفْتَح إلا قليلاً

عندما يراد إدخال جِمال محمَّلة، أما الخوخة فتفتح عند الحاجة، ويظهر لي أن إدارة الشرطة أو مديرها اتصل بالمصمك يخبره باستقبالي سجيناً، ويظهر لي - أيضاً - أن مدير الشرطة واسمه محمد بن عطيشان أوصى بي خيراً وإن كان لا يعرفني.

وقفت أمام الباب الكبير ورأيت فيه مَغْرز الحربة التي أطلقها ابن جِلْوِي عندما هاجم مع ابن سعود الحصن وقد أراد ابن عجلان أن يهرب منهما إليه، وحاول أن ينفذ من الخوخة إلى الداخل فأرسل ابن جِلْوِي الحربة إلى ابن عجلان ولم تصبه وإنما اغترزت في الباب، وقفز محمد بن عبد الرحمن شقيق عبد العزيز فأمسك بقدم ابن عجلان الذي استطاع أن يفلت منه وينفذ إلى الداخل فنفذ محمد معه فإذا ابن عجلان يجري إلى غرفة يريد الاختفاء بها حتى ينجده جنوده فعلاه محمد بن عبد الرحمن بسيفه فقتله في الغرفة القريبة من الدهليز التي أراد أن يحتمي بها فكانت منيته بحماه المنيع الذي فوجئ من فيه بهؤلاء المهاجمين.

والخوخة تعلو على الأرض حوالى نصف متر؛ فإذا أراد أحد من السجناء أن يجتازها جمع نفسه واستوفز للنفاذ إلى الداخل، حتى إذا جمعتُ نفسي ووضعت قدمي دفعني أحد الجنديين فإذا أنا أقفز كالضفدع على أرض الدهليز، فإذا حارس عُتُلٌّ يجذبني من يدي اليمنى ويشدني فأقف على قدميَّ دهشاً من هذا العمل الشاذ الغريب.

وتلك عادة القوم مع السجناء، وما يملك أحد منهم الاحتجاج أو الاستنكار مخافة أن يناله من العقاب ما لا يعلم عنه إلا أنه عقاب أفظع مما حدث، فلا كرامة للسجين.

وقادني الحارس الجافي الغليظ الفظ وهو يقبض على يدي الرخصة بيده الحديدية إلى غرفة كان بها مدير السجن واسمه «صالح الشقاري» الذي حيّاني بكلمة «اقْلُطْ» بمعنى «تفضل» لا، بمعنى «اجلس» بعامية نجد، فلا تحية لسجين، ولا يقال له: تفضل، وإنما يؤمر أمراً، وبخاصة عند هؤلاء القوم الغِلاظ.

ولم تكن تلك الغرفة غرفة مدير السجن، وإنما هي لجنوده: وكان بها مصادفة عند دخولي، فغرفته في الطبقة العلوية، وهي كبيرة ومفروشة بالحُصُر النجدية الممتازة، وأمامها رَحْبة فسيحة طويلة عريضة، ويظهر أنها كانت مجلس عجلان حاكم الرياض، والرحبة مجلسه إذا غشيها الظل.

ثم سألني: «أأنت أحمد عطار الحجازي؟».

فأجبت: «نعم، أنا أحمد عطار الحجازي».

وقال لي بلهجة أقرب إلى اللطافة: «سأضعك في غرفة بالطبقة العليا مع حجازي مشهور تعرفه دون شك!».

فشكرت له فضله، وقادني في دهليز طويل ثم أقبلنا على درج بل منحدر تصعد فيه، وعلى جانبيه مدفعان قديمان خَرِبان، ولكن وجودهما يرعب الوافدين إلى المصمك. وصعدنا إلى الطبقة العلوية المخصصة للسجناء البارزين، والطبقة الأرضية للسوقة، والمُضيَّق عليهم.

وأعاد علي كلمته الأولى اللطيفة بأسلوب آخر: أ«لاَ تحب أن أضعك مع حجازي تعرفه فتأنس به»، فقلت له: «الأمر لك وعلى أي حال: اعتبرني ضيفك الخاص!».

ودخل بي المدير حجرة متسعة مربّعة، وفي أحد أركانها رجل نحيل نظيف الثوب يغطي رأسه إحرام أبيض نظيف، وما كاد يراني حتى عرف أنني حجازي فاستغرب من دخولي المصمك، ودعانا للجلوس، فجلسنا فقال لي مدير سجن المصمك «الشقاري»: «ألا تعرفه؟».

قلت: «لا».

والحق، أني لا أعرفه ولا أعرف اسمه.

فوجَّه الشقاري حديث للسجين: «ألا تعرف هذا»، وأشار إليّ فأجابه: «كلا».

ولم يصدق نفي كل منا معرفة الآخر، وظن أننا نتخذ النفي كتماناً للواقع لسبب لا يعلمه، هكذا ظن، ألسنا سجناء سياسيين، والسياسيون بارعون في الخداع والتضليل؟ فلماذا لا يكون نفي كل منا معرفة الآخر سياسة، ولكن أتجوز السياسة على مدير السجن؟!

أحسب أن البراعة في الخداع والتضليل لا تجوز على ذكاء مدير السجن وفطنته وحذقه.

ولكن السجين أردف قائلاً: «الحق، أنني لا أعرفه، ولم أره من قبل، ولم أره إلا في هذه الدقائق، وإذا صدق ظني فهو الأستاذ أحمد عطار».

ومضى الشقاري إلى إدارته وتركني مع السجين الذي عرَّفني بنفسه قائلاً: «أنا السيد حسين نائب الحرم».

فقلت له: «إن زميلي في الدراسة السيد محمد نائب الحرم، وهو من أصدق أصدقائي، وطبيعي أنه قريبك؟».

قال: «نعم»، وذكر لي درجة قرابته.

وآل نائب الحرم سادة من آل البيت وأعرف السيد هاشم نائب الحرم شقيق زميلي وصديقي السيد محمد، كما أعرف كبيرهم السيد عبد الوهاب نائب الحرم عضو مجلس الوكلاء ومن أكبر موظفي الدولة، ومن المقرَّبين من الملك عبد العزيز، وزميلنا السيد حسين نائب الحرم من كبار رجال هذه الأسرة العظيمة الكريمة.

وعجبت من سجن السيد حسين مع أن آل نائب الحرم من المقرَّبين إلى الملك عبد العزيز، ودار بخلدي أن لهذا السيد قصة، ولا بد أنه سيرويها لي ذات يوم.

وقد صح حدسي، فقد حدثني بأنه كان مستشاراً لنائب الملك في الحجاز الأمير فيصل، ولكن خصوماً له وَشوا به فأُقْصِيَ عن منصبه الرفيع، فنُفِيَ إلى الرياض مع بعض كبار رجال الحجاز مثل الشيخ محمد سرور الصبان والشيخ حسين باسلامة وآخرين.

وبقي هؤلاء في سجن الرياض سنة وشهرين ثم أطلق الملك سراحهم، ووكل إلى كل منهم منصباً رفيعاً، فصار محمد سرور الصبان مدير المالية العام، وحسب الأمر

الرسمي «مدير عام وزارة المالية» والشيخ حسين باسلامة عضواً بمجلس الشورى.

أما السيد حسين فقد عاد إلى مكة المكرمة، ثم نُفِيَ إلى الرياض مع بعض أدباء الحجاز وأذكر منهم: حمزة شحاته، وعبد الوهاب آشي، ومحمد حسن عواد، ثم عفا عنهم الملك وأفرج عنهم جميعاً فعادوا إلى الحجاز إلا السيد حسين نائب الحرم فقد آثر المقام بالرياض.

وعندما سجن أدباء الحجاز كنت طالباً بالمعهد العلمي السعودي وسمعت نبأ سجنهم ونفيهم، وقرأت في جريدة «صوت الحجاز» ذلك النبأ.

وأقام السيد حسين بالرياض بضع سنوات معتزلاً، بعيداً من الناس، شاغلاً نفسه بالقراءة، لا يزور ولا يُزار، ولكنه لم ينقطع عن زيارة الملك عبد العزيز، فكان يزوره كل أسبوع أو أسبوعين مرة.

ولما كنت صغير السن حدثاً فقد سألت السيد حسين نائب الحرم عن رأيه في زعماء العرب فقال مجيباً: «مَنْ هم زعماء العرب، زعيمهم الأكبر سجين في قبرص سجنه الإنجليز الظلمة، وابنه فيصل ملك العراق، وابنه الأمير عبد اللّه أمير شرق الأردن تحت حكم الإنجليز المستعمرين، والإمام يحيى حبس نفسه في بلده اليمن، ولا يتطلّع إلى الحضارة والتقدم، بل قانع بعزلته».

ثم أخذ يذكر حكام العرب وما كان منهم ومن كان في

مكانة من كرهم إلا الملك فؤاداً ملك مصر الواقع تحت سيطرة بريطانيا.

وقال السيد حسين نائب الحرم: «لم يبق إلا ابن سعود ليعيد أو ليعمل على إعادة مجد العرب إليهم».

قلت للسيد حسين: «إنك تعرف ابن سعود، وأنت على علم بحكام العرب والمسلمين فما رأيك الصريح في ابن سعود، لأنني ناشئ ولا رأى لي في السياسة، وأريد أن أكوِّن لي رأياً في السياسة العربية وحكام العرب والمسلمين».

فقال السيد: «إن العالم الإسلامي كله والعالم العربي باستثناء مملكة ابن سعود ومملكة الإمام يحيى واقعان تحت الاستعمار الأوروبي أو تحت نفوذه، وسياسة الإمام يحيى أن يغلق باب مملكته ويرتاح؛ فلا أمل في الإمام يحيى، ولم يبق إلا ابن سعود، وسيكون نجمه في صعود، وسيكون أعظم ملوك العرب وحكام المسلمين، الرجل سياسي وداهية، وإذا استطاع بدهائه وسياسته أن ينتصر على الحسين أكبر حليف لبريطانيا في الحرب الكبرى، الذي انهزم أمام ابن سعود، فذلك دليل على أن نجم ابن سعود في صعود!».

قلت له: «إذا كان رأيك فيه حسناً إلى هذا الحد، فلماذا يسجنك؟ لماذا ينفيك من بلدك الحجاز؟».

قال: «سامح اللّه الوشاة!».

قلت له: «لماذا سُجنت هذه المرة؟!».

قال: «كنت وحيداً وأقوم بخدمة نفسي، وما أملك من

الأثاث إلا ما تراه معي في السجن، وهذا «الخُرْج»[1] كنت أضع فيه ملابسي وبعض حاجاتي، وهذه الكتب القليلة، وذات مرة ضاقت نفسي، فاستعرت فرساً من صديق، وخرجت به خارج الرياض أفرِّج الضيق عن نفسي، وكان الجو لطيفاً فابتعدت عن الرياض كثيراً، يمكن عشرة أميال، وإذا سيارة تتبعني بغتة، وأدركتني، وكانت سيارة الملك عبد العزيز فردني إلى الرياض، وعدت إلى داري، فإذا بعض رجاله هاجموها وأنا فيها، ورأوا كل شيء وكأنه مُهَيَّأ للانتقال، وظنوا أنني أعددت العدة للفرار، وحسبوا أنني خرجت بالفرس أستكشف الطريق لأفر إلى العراق.

«هكذا أبلغوا الملك فأمر بسجني، وهذا هو السبب».

وهذه هي المرة الثالثة التي يُسْجَن فيها، ومن المصادفات العجيبة أنه كان يوم الإفراج عني من سجن الفرن في مكة المكرمة هو يوم سجن السيد حسين بسجن المصمك بالرياض.

ومع تلك التهمة الخطيرة كان السيد حسين طُلُقاً[2] في السجن والحمد لله، وكان مُعَزَّزاً مُكرَّماً، فهو ذو مكانة لحسبه ونسبه.

---

(1) الخُرْج (على وزن فعل): كيسان موصولان يوضعان على ظهر الحمار أو الحصان فيتعادلان؛ يضع فيهما الراكب حاجاته.

(2) أي بدون قيد.

الحياة في المَصْمَك

الحياة في السجن المُرَفَّه - إذا كان هناك سجن مرفّه - ثقيلة كاربة ما تطاق وطأتها، ولو لم يكن في السجن غير الحجر على الحرية لكان كريهاً ممقوتاً.

فكيف إذا كان هذا السجن هو سجن المصمك الذي لا يجد من يُزَجُّ به ضرورات الجسد بَلْهَ الروح، وبخاصة السجين المتحضر؟!

كل شيء في المصمك كريه، وإذا كان الطغرائي يقول:

فيمَ الإقامةُ بالزوراء لا سكني

بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

هذا والزوراء دجلة بغداد، وناهيك بدجلة جمالاً وماء وخضرة، وهو حرّ طليق يملك إرادته واختياره، فكيف بمزجوج في سجن رهيب كالمصمك لا يزور ولا يُزار، ويتحكم به أناس جهلة من هؤلاء السجانين البدو، لا شك أن الحياة فيه تكون غاية في البؤس والشقاء، وأي شقاء أفظع من وحشة سجين لا يعرف أي شيء عن أهله وأصدقائه، وأخبارهم منقطعة عنه، وأخباره لا تصل إليهم، ويتحكم فيه أفظاظ غلاظ يرونه عدواً لهم، ويرون أنفسهم سادة نبلاء، ويرونه حقيراً مسوداً.

وحراس السجون يحكمون بأمرهم، ولا يبالون، ولا يخشون اللَّه في معامله أناس جُرِّدوا من كل قوة وقدرة، وأُلْقوا بين جدران أربعة.

وفي المصمك نوعان من الحياة: حياة مدقعة يشقى بها فوق شقاء السجن وكربه السجناء من العامة، ومن يحكم عليهم بالتضييق من الخاصة، وحياة مترفة بالنسبة لمن سبقوا، وهي حياة الخاصة، حيث يلقون معاملة خيراً من أولئك السجناء السوقة.

والخاصة يُسجنون في الطبقة العليا، للعامّة الطبقة السُّفلى التي بها غرف ليس فيها غير الباب، فلا نوافذ، ولا ماء، والباب دائم الإغلاق، ولا يُفتَح إلا وقت الصلاة ووقت وجبتَيْ الطعام، ويفتح الباب في وقت معين لقضاء الحاجة، وما بالسجن كله مراحيض. في الطبقة السفلى غرفة غير مسقوفة يدخل إليها من يريد قضاء الحاجة تحت السماء، أما أهل الطبقة العليا ففي أحد الأسطح، وكانت كذلك كل بيوت الرياض التي لا تعرف المراحيض إلا بعض بيوت الحجازيين الذي صنعوا فيها مراحيض.

وغرف السجناء بالطبقة الأرضية لا ضوء فيها، فهي شديد الظلمة ليل نهار، فكأنها قبور، وإنما سكانها أحياء لا يرى بعضهم بعضاً بالأعين، وإنما يتخذون السمع مكان العين، فإذا سمع صوتاً أدرك أن معه إنساناً، وليس في السجن كله أي عناية طبية؛ ولا نظافة.

أما الطعام؛ وما الطعام؟ إنه أُرُزّ مسلوق بالكركم يكسبه لونه الأصفر، فيه قليل من لحم الإبل غير مَعْنيٍّ بطهيه ونظافته، بل تجد فيه الطيور، والطيور في لغتهم: الذباب، فإذا كان بين السجناء سجناء حجازيون من العامة اضطروا إلى ازدراده وبلعه، أما السجناء من البدو فيأكلون الطعام بشهية أكلاً لمَّا، فقد ألفوا ذلك.

وهذا الطعام يأتيهم من مضيف الملك عبد العزيز الذي أنشأه للفقراء من البدو يؤمّونه ليأكلوا ويشربوا، ويُعْرَف أو يُسمَّى هذا المضيف مضيف خِرِيمس، وخريمس اسم رجل، ولعله كان المشرف عليه فنُسب إليه.

أما نحن الخاصة فمأمور لكل منا بخرجية، والخَرْجية: مخصص خصصه الملك عبد العزيز، وهو عشرون أو ثلاثون أو أربعون ريالاً فرنسياً، وكان مخصصي في الشهر أربعون ريالاً فرنسياً، وكان يساوي ثلاثة ريالات سعودية، وكيس تمر وكيس أرزّ وكمية من الشاي وكمية من السكّر، وأشياء أخرى مثل الحطب، ونحن نطهو طعامنا بأنفسنا، وممنوع تنويعه، بل يجب ألا يتجاوز ما يُطبخ قدراً واحدة، فإذا أردت أن تطبخ أرزّاً ولحماً وخضروات وضعتها جميعاً في القدر.

وكنت أنا أتسلم الأربعين ريالاً فرنسياً، أما الأشياء الأخرى فكنت آمر الجندي المكلَّف بخدمتي ببيعها وإحضار قيمتها نقداً لي، فكان يبيع كل تلك الأشياء بعشرين ريالاً فرنسياً، وكنت أعرف أنه كذاب وغشاش، يبيع تلك الأشياء

بخمسين فرنسياً أو أكثر ويزعم لي أنه باعها بعشرين، ولا أملك غير إظهار الرضا والتسليم.

ومن المخصص النقدي وقيمة الأشياء المبيعة أنفق على نفسي وعلى الجندي الذي يخدمني ويحرسني، فأعطيه في الصباح ما يشتري لي به الفطور فولاً وسمناً وخبزاً، وما كانت الرياض تعرف الفول «المُدَمَّس» إلا من الحجازيين الذين فتحوا بعض الدكاكين في حي بالرياض يسمى «حِلّة العبيد» تبيع بعض ألوان الأطعمة والحلواء.

ثم بعد الفطور كنت أعطي الجندي ما يشتري لنا به اللحم وبعض الخضروات والسمن والبصل والثوم، وكان اللحم سميناً طيباً، فكنت أتولى قَطْع اللحم وغسله ثم أضع في القدر السمن والبصل والثوم بعد دقه وفوقه اللحم والخضراء وفوقهن الأرزّ الذي كنت أنقّيه من الحصا والتراب، ثم أغسله أربع مرات حتى يكون ماء الغسل نظيفاً صافياً، فأضع الأرز على ما في جوف القدر، ويأخذ الجندي القدر ويضعها على النار في مكان بعيد، إذ لا يجوز إشعال النار في غرف السجناء، فإذا نضج الطعام أحضره الجندي، فألقي كل ما في القدر في «تبسي» ويشاركني الجندي الغداء والعشاء، أما الفطور فكنت آكله وحدي هنيئاً مريئاً والحمد لله.

وعندما ألقي ما في القدر من الأرز واللحم والخضراء ويكون الطعام شديد الحرارة يتصاعد البخار منه، فإذا الجندي

يزدرد الطعام ازدراداً لا يبالي حرارته اللاظية، فما كنت آكل لقمة إلا أكل مقابلها خمس لقم أو ستاً، وكان يُدَبِّل اللقمة تدبيلاً.

وفي خلال بضع دقائق يكون الطعام قد نفد، وانتهى خمسة أرباعه إلى بطن الجندي النهم الأكول، فكنت أنهض جائعاً دائماً، وما أشد عض كلب الجوع في شتاء الرياض.

وأخذت أفكر في مشكلة الجوع تفكيراً جدياً، ولست بشاذ في هذا التفكير، فشغل كل من في العالم من أفراد وأُسَر وجماعات وشعوب وحكومات، الطعام وتأمينه، وكل مشاكل الإنسان بسبب الطعام.

وانتهيت إلى ما ظننته حلاً، فقد هداني التفكير الجاد إلى أن أضع في طعامي فلفلاً حاراً حرَّاقاً، وهذا الجندي لا يطيق أكل الطعام إذا كان فيه فلفل حِرِّيق، فأمرته أن يشتري لي فلفلاً أخضر فاشتراه لي مع الأشياء الأخرى، ويُسمَّى في نجد «حُبْحُر».

وهيأت القدر، وقطعت عشرة قرون من الفلفل، قطعت كل قرن قطعتين بالطول، ثم: وضعت ذلك مع اللحم والأرز والخضراء والطماطم.

ولما غرفت الطعام مد الجندي يده وتناول بيمناه لقمة مُدَبَّلة كعادته وأخفاها في فمه ثم أخرجها منه إلى يده، وهو يقول: آخ، آخ، لقد هلكت من الحرارة، وطبيعي أنه لا يقصد حرارة النار فهو يحبها، وإنما يريد حرارة الفلفل،

وترك لي الطعام كله وغادرني إلى رفاقه الشرطة السجانين يأكل معهم ويخبرهم خبر الفلفل، مع أن الحكومة تعطيهم الطعام غداء وعشاء، ولكنه الاستغلال والاسترباح.

أما أنا فكان عندي ذلك عيداً، فنعمت بالطعام أكلته هنيئاً مريئاً؛ ولأول مرة شبعت شبعاً كافياً من طعامي منذ جاء هذا الجندي إلى حراستي وخدمتي.

وهكذا صرت أصنع، ولكنه قبّحه اللّه أَلِفَ بعد بضعة أيام الفلفل واستطابه، وأخذ يلتهم الطعام، وصرت أنهض جائعاً، وعاد كلب الجوع يعضُّ بأسنانه المُؤَلِّلة، وعدت إلى التفكير في مشكلة الجوع العويصة الخطيرة المُعَقَّدة.

ومضت أيام ثلاثة وأنا أفكر فيها بكل ما وهب اللّه لي من ذكاء وعقل ولم أهتدِ إلى حل، وأخيراً تشجعت وصمَّمت أن نتقاسم الطعام وأصارح الجندي النهم، فلما جاء بالقدر قلت له: «اسمع يا هذا، لي نصف الطعام ولك نصفه»، وقسمته أنا نفسي قسمين، قسماً وضعته في الصحن، وقسماً أبقيته في القدر وأعطيته إياه فأخذه ومضى وتركني، وأكلت في دعة وأمن حتى شبعت.

وهكذا صرت أشبع من طعامي، أما الشاي فكنت قد اشتريت «براداً» يكفيني، وكان الماء مغلياً على الدوام عند إدارة السجن، فكلما أردت الشاي ناديت الجندي وأعطيته البراد يضع الماء على الشاي، ثم يضعه على الجمر دقيقة ثم يحضره إلي فأشربه وحدي.

ولا وجود لعناية طبية، فلم يكن في الرياض ونجد طُبّ إلا الطب البلدي، فإذا مرض السجين من العامة أو الخاصة فلا طبيب يعوده، لأنه لا وجود لأطباء، بل المريض من السجناء العامة موكول إلى قدره، فإذا قُدِّر له الشفاء شُفِيَ، وإلا عانى مرضه حتى يموت منه، أما المريض من الخاصة فعليه أن يتولى تطبيب نفسه.

وكنت إذا شعرت بأي وعكة أشتري «أسبرو» وكان موجوداً في دكاكين الحجازيين، وهو و«الإسبرين» دواء كل مرض.

ولقد غلط القلم فكتب «أشتري» وأقصدى أنني اشتريت مجازاً لا حقيقة، فما كنت أشتري إلا بوساطة الجندي، يشتري لي ما أرغب، فكان «الأسبرو» دواء كل داء.

وغرف السجناء من العامة حمأة تتناسل فيها الحشرات بكثرة، وتتولّد بها الميكروبات بسرعة، ورائحتها في غاية الكراهة.

وتنتشر الأمراض بينهم، ويا لَلْكارثة إذا كان بينهم مصاب بمرض مُعْدٍ، يعدي الأصحّاء، فإذا أُفرج عن أحدهم أعدى من في الخارج، وهكذا تنتشر الأمراض المُعْدِية.

أما الخاصة من السجناء الذين ينزلون الطبقة العلوية فإن غرفهم نظيفة، وهم يفرشونها من مالهم بالحصير وببعض البسط الهندية، ويغتسلون كلما عنّ لهم أن يغتسلوا، وكانوا يشترون الصابون والعطور والعود الذي يُتبخَّر به، كما كانوا يشترون

الملابس التي يريدونها بوساطة إدارة السجن أو خادمه.

وكانوا يملكون شيئاً من الحرية، فبابهم غير مغلق، بل مفتوح، وهم أحرار في الفتح والإغلاق، ولهم خدمهم من الجنود.

ولم يكن في الطبقة العلوية، من السجناء الخاصة إلا السيد حسين نائب الحرم وكاتب هذه السطور، ولما كنا معاً في غرفة واحدة كان السيد الجليل - مدّ اللّه في عمره - هو الذي يقوم بتدبير أمور الطعام والشراب، وكانت النفقات مناصفة بيني وبينه، وكان مصرفنا اليومي أربعة ريالات فرنسية، وأحياناً خمسة، وأحياناً ستة، وكان الخادم الخؤون يقتطع لنفسه ربع قيمة ما يشتري لنا أو ثلثه ونحن ساكتون، لا نستطيع أن نعترض، وفوق ذلك يشاركنا الطعام والشراب.

ولما عزلت إدارة السجن كلاً منا وحده فإن الجندي كان يقتطع من كل ما يشتري لنا من حاجاتنا شيئاً لنفسه، فكلهم كَذَبة غشاشون لئام.

وعندما عزلوني عن السيد حسين أنزلوني بغرفة تقابل غرفته، ولكنها أصغر منها مساحة، وعلى جانبيها «رحبة» بقدر مساحة الغرفة التي تبلغ حوالي أربعة أمتار في ثلاثة أمتار ونصف متر.

وفي الرحبة من الناحية الجنوبية يقع أحد الأبراج العالية وهي مع ارتفاعها عميقة أيضاً كأنها جُبٌّ في مساحة غرفتي أو أكبر قليلاً، والنزول إلى هذا العمق بمنحدر،

وقد نظفته ووضعت صفيحة مقلوبة جعلتها كرسياً لجلوسي، وكانت هذه الغرفة باردة في الصيف، فإذا أردت الراحة والاستجمام وشرب السجائر والاتصال بالعالم الخارجي نزلت إليها، ونظرت من الثقوب فأرى الأحياء يروحون ويجيئون، وأسمع أصواتهم فأشعر بالحياة، وكنت أدخِّن في هذا المكان.

ومع أن مدير السجن صالح الشقاري يدخن سجائر يلف دخانها بيده، فإذا زارنا في غرفنا ضيَّفنا بدخانه ويسمى «عَمَايِدِي» فإنه لم يكن يسمح لنا به إلا ما كان يُهرَّبْه إلينا وبسعر خيالي.

وكان مدير السجن يغيِّر لنا الجندي الذي يخدمنا كل شهر أو شهرين حتى لا تنعقد بيننا وبينه صلة صداقة فنستخدمه في أشياء خاصة لنا.

وبعد مضي ستة أشهر وبضعة أيام غيَّر مدير السجن خادمي واختار لي خادماً جديداً يُدْعى «أبا حسين» وكان رجلاً تجاوز الستين، وكان عفيفاً حسن الخلق نبيلاً، فلأول مرة كان ثمن ما باعه لي مما هو مخصص لي من الأرزّ والسكّر والشاي والحطب بأكثر من ضعفي القيمة التي كان يسلمنيها من سبقوه من الخدم اللصوص.

وكان صدوقاً مخلصاً، وشكوت له بعض ما لقيت من العسف على يد من سبقوه، فاستعدّ لبذل جهوده لخدمتي، فطلبت إليه شراء دخان لي، فقال: «لي صديق حجازي

صاحب دكان يبيع الدخان سراً» - وكان الدخان مُحَرَّماً في الرياض ويُجلد من يُضبط لديه أو يستعمله - فأحضر لي ست علب من ماركة «غازي» وهو عراقي الصنع، وقال لي: إنه رأى سيارة يسوقها حجازي من أهل مكة اسمه «عبد الرحيم بخاري» وهو يعرفك ويقول: إنه جارك وصاحب إخوتك الكبار حسن وحسين ومحمد، فإذا أردت أن ترسل خطاً (أي رسالة بلغة البدو) فاكتبه، وأنا أمضي به إليه، وهأنذا أحضرت لك ورقاً وظرفاً وقلماً.

وصح كل ما ذكره لي «أبا حسين» فعبد الرحيم بخاري جار لنا وأخوه الأصغر منه زميلي وصاحبي، وأعرف والدتهما، فقد كنت أدخل منزلهما دائماً، وكتبت رسالة مطوَّلة إلى أمي، وجعلت عنوان الظرف واسم المرسل إليه اسم أخي محمد عطار، وهو أكثر إخوتي الكبار صلة بعبد الرحيم، وسأنشر الرسالة بعد هذا الفصل.

وتسلم «أبا حسين» الرسالة مني وسلّمها لعبد الرحيم بخاري الذي كانت مهنته السياقة، وكان سائقاً بشركة السيارات العربية.

وأبديت لأبا حسين رغبتي في شراء كتب، وأعطيته مبلغاً من المال، فاشترى لي مجموعة من الكتب القديمة المستعمَلة وجدت بينها قصة «تاييس» لأناتول فرانس ترجمة الأستاذ أحمد الصاوي محمد.

وإذا أرادني صديقي السيد حسين ألقى على الرحبة التي

أمام غرفتي حصى صغيرة فأخرج إليه فنتحدث همساً أو إشارة، وكذلك أصنع معه إذا أردته.

وإذا أردنا اللقاء دعونا مدير السجن إلى الغداء فيلبي فنجتمع معه لدى أحدنا ونتحدث.

وذات صباح صلّيت أنا وأبا حسين الفجر، وبعد الصلاة والوِرْد قال لي: «رأيت لك البارحة رؤيا أرجو اللَّه أن يحققها»، فقلت له: «خير، إن شاء اللّه». قال: «رأيتك مرتدياً ثوباً أبيض معتمراً بعمامة بيضاء ممتطياً حائط السجن تريد الخروج، وقد سبق أن رأيت هذه الرؤيا لأحد أمراء عسير - وكان سجيناً - وبعد أسبوع أطلق سراحه بفضل اللّه، فلعل اللَّه يفرج عنك بفضله وكرمه»، فقلت: «آمين».

وأرسلت أبا حسين إلى السوق يشتري لي أشياء، فغاب ساعة وعاد بما اشترى، وقال لي: «أبشر، فقد سألت لك معبِّراً للرؤيا، فقال: سيُطْلَق سراحك قريباً بمشيئة اللّه»، فقلت: «إن شاء اللّه».

وشعرت أن انتداب أبا حسين لخدمتي بشير خير، فقد تغيرت حياتي، فصار الدخان عندي موفوراً بسعر رخيص، بعد أن كان الثمن باهظاً كل البهظ.

وكل الخدم الذين اختلفوا على خدمتي - غير أبا حسين - لئام، وقد صدق أبو الطيب إذ يقول:

وربَّما أشهِدُ الطعامَ معي
مَنْ لا يُساوِي الخبزَ الذي أكَلَهْ

فكل من خدمني من هؤلاء اللئام الغشاشين لا يساوي الخبز الذي أكله، ومع أنهم كانوا يأكلون من زادي، ويلبسون على حسابي فما رأيت منهم خيراً قط، وكل ما رأيت منهم جحود وأذى.

فلما جاء أبا حسين تغيرت الحال، وبعثت أول رسالة بخطي إلى أمي، ورؤيا أبا حسين التي كانت بشرى تضاف إلى بشائر أخرى.



رسالة إلى أمي

أمي، حفظك اللّه ورعاك وأطال عمرك، آمين.

سلام اللّه عليك وعلى إخواني ورحمته وبركاته، وبعد تقبيل يديك وقدميك، أبشّرك أنني بخير كثير بفضل اللّه سبحانه وتعالى، وصحتي حسنة، وجلالة الملك يعطيني راتباً شهرياً أربعين ريالاً فرنسياً، كما أمر بأن يُصرف لي كل شهر كيس أرزّ وكيس سكّر، وأقّتي شاي، وأقّتي بن، وأقّة هيل، وحِمْل حطب، وكسوة.

وعلمت أن ساعة الفرج قريبة بمشيئة اللّه، وإنني أعلم أن دعاءك الدائم لي واستجابة اللّه سبحانه وتعالى لدعائك سبب ما أنا فيه من الستر والخير.

ولا تشغلي بالك بالهَمّ والغَمّ علي، فكل شيء بالنسبة لي طيب، فأكلي طيب، وشربي طيب، ولبسي طيب.

اطمئني يا أمي فأنا مرتاح وأنتظر فرج اللّه القريب.

وسلمي لي على خالي وعمتي أم إستيته[1] آسيا، وعمتي

(1) أهل الحجاز المتحضرون ينادون أختهم الكبيرة أو من كانت في مقامها من بنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات ومن القريبات إستيته وأظنها ستيتة تصغير ست، والست هي الجدة بالعامية.

أم عيسى، وخالتي أم مريم، وكل أقاربنا.

وسلامي لإخواني الأعزاء حسن وحسين ومحمد وجميل ونور وكل الأقارب.

وسلّموا لي على الأخ محمد شركار وأحمد شركار ووالدهما وعمهما وعمتهما وعلى الأخ موسى ديوان وعيسى ديوان، وعلى الأخ جميل شقدار وعلى الشيخ حسن الطف وحامد قاري ومحمود بخاري، والأخ محمد أبون العيون ووالدته، وعلى جارنا العم أكرم خان، وعلى الأخ عبد المؤمن تَشْكر وأهل بيته، وعلى كل من يسأل عنا.

وأبشِّرك يا أمي أنني أقرأ القرآن ليل نهار، وأختم كل أسبوع ختمة، فأنا لا أشغل نفسي بغير قراءة القرآن، فلعل اللَّه يُنعِم عليّ بالعودة إلى بلده الأمين لأسعد بتقبيل قدمك الشريفة.

والسلام عليك ورحمة اللَّه وبركاته.

ابنك

التوقيع

(أحمد عبد الغفور عطار)



القراءة والكتابة

في المَصْمَك

أَلِفْتُ القراءة منذ صغري، وكلما تقدمت بي السن زاد تعلُّقي بالقراءة.

وكان معي في المصمك كتاب «حياة محمد» صلى اللَّه عليه وسلم للدكتور محمد حسين هيكل، وهو من خير ما أُلِّف عن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، وأسلوب الدكتور هيكل من أقوى الأساليب العربية الحديثة ومن أكثرها إشراقاً وجمالاً.

وقد وُفِّق هيكل في إظهار شخصية الرسول الكريم عليه صلوات اللَّه وسلامه، كما وُفِّق في تفنيد أباطيل أعداء الإسلام ورسوله من المستشرقين وغيرهم.

وكان معي في السجن بعض مؤلفات الرافعي والمازني كما وجدت لدى السيد حسين نائب الحرم كتاب «المؤامرة اليهودية على الشعوب» وتحته عنوانان آخران هما «المقررات الصهيونية أو مضابط الجلسات السرية لحكماء إسرائيل».

وجاء في غلافي الكتاب أنه مترجم من الفرنسية بقلم الخوري أنطون يمّين، وطُبع في مصر، ولم يذكر المترجم ولا الطابع سنة الطبع.

وكل صفحات الكتاب مزدحمة بتعليقات بقلم السيد حسين، وهي تعليقات رائعة وعظيمة.

ولما قرأت الكتاب غشيني الذهول من هول ما خططه اليهود لتدمير الإنسان وقِيَمه وتراثه ودياناته، والاستيلاء على ثرواته.

ويحذِّر السيد نائب الحرِم العرب والمسلمين - أولاً - ثم كل بني البشر من المؤامرة اليهودية على الشعوب بدون استثناء.

وألحق السيد نائب الحرم بالكتاب «كراسة» مقاس ورقها مثل مقاس ورق الكتاب دوَّن فيها آراءه في اليهود ومخططاتهم الرهيبة، وجاء في هذه الكراسة التي ألّفها السيد نائب الحرم أن اليهود يخططون لحرب كبرى أخرى طمعاً في مغانم يحصلون عليها، وذكر أن اليهود هم الذين يكسبون هذه الحرب دون من يخوضونها.

وقد اشتريت وأنا في السجن كتاب «ألف ليلة وليلة» المكوَّن من أربعة أجزاء، وسلَّتني قراءته، وحفظت ما فيه من أشعار، وكنت أقرأ والسيد يسمع، وكنت حَسَن القراءة سريعاً، وكان السيد يستنبط من ألف ليلة وليلة العِبَر والعِظات والحِكَم!

وقرأته مرتين أو ثلاثاً، وكانت لي ذاكرة اشتهرت بسلامتها وقدرتها، فكنت أحفظ خُطَب الخطباء إذا سمعتها، بل كنت أحفظ المحاضرات من مرة واحدة حين يلقيها أصحابها.

وكان عندي في السجن المعلَّقات فحفظتها، كما كان عندي كتيِّبات صغيرة.

والذي أدهشني أنني وجدت في الرياض قصة «تاييس» لأناتول فرانس، مع ما فيها من كفر بشع قذفه لسان الكاهن «بافنوس» الذي أمضى أربعين عاماً يعبد اللَّه على عمود، ثم عرف «تاييس» الجميلة التي فتنت أكابر أهل الإسكندرية بجمالها وقوامها ورقصها وفتنتها الخالبة؛ ودعاها إلى الهدى فاهتدت على يديه وتابت توبة صادقة نصوحاً، وخرجت عن دنياها وما تملك من الذهب والفضة والحلى والمصوغات والجواهر وزهدت في كل ذلك حق الزهد، وفرّت مع بافنوس إلى دير في الصحراء حتى امتلأ قلبها بنور الهدى والإيمان.

أما بافنوس الراهب فقد دخل الشيطان إلى قلبه، وغوى الراهب الناسك بافنوس الذي انتهى إلى أعلى مراتب الصلاح والزهد والتقوى، فإذا الشيطان يسيطر عليه، ويندم على أنه لم يستمتع بجسدها الخالب الذي استمتع به الناس، وكفر بربه شر كفر، وتطاول على مقامه الأعلى.

وماتت تاييس التي طهّرتها التوبة الصادقة، وصعدت روحها إلى السماء تنعم بالنعيم الأبدي، وهلك بافنوس فهبطت روحه إلى أبعد دركات الجحيم تشقى بالعذاب الأليم السرمدي.

وذكرت ما يقول المسلمون في دعائهم إذ يسألون اللَّه

تبارك وتعالى حُسن الختام كما تذكرت حديث رسول الإسلام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام الذي قال ما معناه: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»!.

وقصة تاييس مصداق هذا الحديث النبوي الشريف، فتاييس المومس التي عملت بعمل أهل النار حتى لم يكن بينها وبينها إلا ذراع وسبق عليها الكتاب ورزقها اللّٰه حُسن الختام فعملت بعمل أهل الجنة فدخلتها، وذلك الشقي «بافنوس» الذي عبد اللّٰه طوال حياة لم يعبده طائع كعبادته حتى لم يكن بينه وبين الجنة إلا ذراع فسبق عليه الكتاب فعمل بعمل أهل النار فدخلها، والعياذ باللّٰه.

قرأت هذه الكتب المعدودات غير مرة، وكدت أحفظها حفظاً، وخفّفت عني ثقل سجن المصمك، وحفظت كثيراً من الشعر الجاهلي.

أما الكتابة فكان الورق غالياً وقلم الرصاص كذلك، وتهريبهما صعب، فكنت أبري القلم حتى أجعل سنه كسن الإبرة، وكنت أكتب في صفحة الورقة التي تبلغ مساحتها 15 × 10 سم بخط جدّ رفيع ما يملأ عشر صفحات من صفحات هذا الكتاب أو أكثر.

كتبت هذه الذكريات في المصمك، وخبأت الأوراق التي كتبتها في أرض غرفة البرج إذ دفنتها فيها مخافة التفتيش احتياطاً وحذراً، لأن إدارة السجن لم تفتشني قط والحمد لله، ثم أخرجتها وخبأتها في المخدة بعد رؤيا أبا حسين الذي بعث وجوده عندي الأمن والطمأنينة في نفسي.

ونظمت في السجن بعض القصائد الرائعة منها هذه القصيدة التي سأذكرها بعد هذا الفصل إن شاء اللّه.

نظمت قصائد ومقطوعات منها وداع عام، فقد سجنت في المصمك في شهر شعبان 1356هـ وغربت شمس آخر يوم في هذه السنة وأنا سجين المصمك، كما أهلّ عليّ هلال المحرم من سنة 1357هـ وأنا ما أزال رهين المصمك، وصورت مشاعري في تلك القصيدة أصدق تصوير[1].

وكنت أقرأ في السجن كثيراً، فقد كان وكيل السجن ويُدْعَى عبد العزيز الأحيدب شاباً يحسن القراءة والكتابة وجمع ديواناً ضخماً من الشعر النبطي - وهو الشعر العامي في نجد الذي يسمونه الشعر النبطي - وطلب إليّ أن أكتب مقدمته، فأجبته؛ وهل يسعني غير الإجابة في الموقف الذي أنا فيه.

---

(1) جمعت القصائد والمقطوعات التي نظمتها بالمصمك مع قصيدتين نظمتهما وأنا بسجن الفرن في ديوان استعاره الأستاذ محمد حسن عواد رحمه الله، وزعم أنه ضاع منه، وأظنه كان صادقاً في زعمه، وكانت خسارتي بفقده جسيمة. المؤلف

تسليت بقراءة الديوان الضخم، وهو مجموعة كبيرة لشعراء نجد اختارها الأحيدب، وقرأت كل شعر حواه الديوان، وكتبت له مقدمة كلاسيكية، أي على طريقة القدماء في عصور انحطاط اللغة والأدب، إذ كتبت المقدمة مسجوعة أعجبت جامع الديوان ومن قرئت عليه من زملائه السجانين وغيرهم، وكذلك من قرأها ممن يعرفون القراءة وكان الأحيدب يتعلم على يدي بعض العلوم، وطبيعي أن معاملة السجانين لي تحسّنت.

وكانت بشائر التحسُّن بزغت بدورها قبيل مجيء أبا حسين إلى خدمتي بأسبوع أو أسبوعين، فجاءني الأحيدب يتعلم مني بعض العلوم، وكتبت له مقدمة الديوان الذي يضم مجموعة من الشعر النبطي الذي لا يعجبني لأنه باللغة العامية، ولهذا لا أسمعه ولا أشجعه ولا أرضى عنه ولا أقرؤه ولا أستسيغه[1].

---

(1) منذ بضع سنوات كنت بالرياض مدعواً من قِبَل جامعة الرياض وأنزلتني بفندق اليمامة، وفوجئت ذات يوم بزيارة الشيخ الأحيدب، وأعلمني أنه متقاعد برتبة «زعيم» وكان يعمل بالأمن العام، وأطلعني على بضعة كتب ألّفها وطبعها، ودعاني إلى بيته فلبَّيْت دعوته، وتذكرنا ذلك الماضي البعيد، وإن كنت أجدد الشكر على ما لقيت منه وأنا سجين وما لقيت منه وأنا طليق.

وأشهد بعد مرور أربع وأربعين سنة على معرفتي بالأحيدب أنه كان إنساناً فاضلاً، وكلما كبر في السن كبر إنسانيةً وفضلاً.

ناعورة الرياض[1]

ناعورة في الرياضِ　　تغري الدجى بالأنين
وتشتكي كالمِراض　　بلوعة وشجونِ
وصبوة واحتراق
من قسوة وفراق
كزمرة العشاق

* * *

لا ترقدُ الليل إلاَّ　　سويعة ثم تنهضْ
تصحو إذا الليل ولَّى　　وأقبل الفجر يركضْ
على غُنا الفلاّح
تصحو كطفل مُلاحِ
من بين نسج الوجاحِ

* * *

(1) نشرت هذه القصيدة في مجلة «الثقافة» المصرية القاهرية ثم في ديوان شعري المسمى «الهوى والشباب» المطبوع في مصر سنة 1362هـ (1943م).

من الأُلُمْبِ البعيدِ أتتْ إلى البلدانِ
تجرّ ذيل الخلودِ من بدعة اليونانِ
تمضي العصور وتفنَى
وعمرها ليس يفنَى
وليس يعرف وهْنا

* * *

قد أقبلت من أثينا بكراً تئنَّ أنينا
آلامها لن تهونا والدمع يجري هتونا
كديمة هطلاءَ
تروي به الغبراءَ
فتشبه الحسناءَ

* * *

كأنها بالدموع ترجو من الحبِّ قربانا
لكنه في هجوعِ يتيه كبراً وعجَبا
وإذ ترى منه صدًّا
تسقي الحشاشة بردًا
من منهل صار عَدًّا

* * *

في قلبها يتوقّدْ جمر يذيب الجلْمَدْ

إن يحتس الماء يزدذْ　　فجذوة الحب تخلذْ
كـــالـــدهـــر إذ يـــتـــجـــدَّدْ
وعـــمـــره لـــيـــس يـــنـــفَـــدْ
وما مضى اعتاض في الغدْ

* * *

تقضي الدجى تتصوَّرْ　　خياله في الـنجـمِ
وحينما الليل يدبرْ　　تقوم والهم يصمي
فـــؤادهـــا بـــالـــســـهـــم
مـــن ربـــة الـــحـــب تـــرمـــي
بـــه الـــحـــشـــا الـــمـــســـتـــدمـــي

* * *

قد أُبدِعت من جمادِ　　تغلغل الحسُّ فيهِ
ففي انسدال السوادِ　　يبكي على ماضيهِ
بـــأنـــة وزفـــيـــرِ
ولـــوعـــة الـــمـــهـــجـــور
يـــفـــتـــنُّ فـــي الـــتـــعـــبـــيـــر

* * *

تعبيره كالكمانِ　　به يبثّ الحزنا
يـــبـــثـــه كـــل آنِ　　ولا يـــنـــي يـــتـــغـــنـــى

بُـمْـحْـزِن الأغـنـيـاتِ
وأوجـــع الأنّـــاتِ
تـفـيـض بـالـحـسـراتِ

***

نـاعـورة ألـهـمـتـنـي أنـشـودة لـلـغـنـاءِ
وطـالـمـا سـامـرتـنـي في الليلة الظلماءِ
فـي حـيـن لـم ألـقَ سـامـرْ
فـأقـطـع الـلـيـل سـاهـرْ
أحـصـي الـنـجـوم الـزواهـرْ

***



التسلية في المَصْمَك

لم يكن لي وأنا في سجن رئاسة المنطقة الأولى خمسة أيام ثم بالمستشفى خمسة عشر يوماً ثم في سجن الفرن ثلاثين يوماً ما أتسلّى به غير القراءة، ولما مُنِعْتُ عنها وأنا في سجن الفرن وحدي بالغرفة الموحِشة كنت أتسلى بالحديث المسترق مع السجناء، وبمراقبة النمل، وإحصاء الثقوب في الباب والحائط، وعدِّ المربعات المكوّنة من تقاطع القضبان طولاً وعرضاً لئلا يفر السجين من النافذة التي تطل على ممر بوسط السجن يوصل بين الممر الطويل والمرحاض، والميضأة، فإذا بقيت النافذة بغير القضبان فإن من المتعذر أن يهرب منها سجين الغرفة.

ولكنهم وضعوا القضبان ليؤثروا في نفسية السجين، فالسجن إهانة وتعذيب.

ولما أعيدت إليّ الحرية التي كان يتمتع بها السجناء كنت أتسلى بالقراءة وبالإصغاء إلى من يحدثني من السجناء، أو بالحديث إليهم.

وأما المصمك فبالقراءة وبالتحدث مع الزميل السيد حسين نائب الحرم، وبمراقبة أسراب الحمام، الذي يربيه

السيد، ويذبح منه ما يطهوه لنا، والسيد طاهٍ ماهر.

وكنت أتسلى بمراقبة أسراب الحمام، وبعض الطيور الطليقة كالقماري والعصافير.

وكنت أتلهى وأشغل نفسي بنقل أثاثنا المتواضع الحقير، فنغير وضع الأثاث والفراش وترتيبهما.

وكان من أمتع إزجاء الفراغ سماع حديث السيد وذكرياته وقصصه، وعمن يعرفهم من الزعماء والرؤساء والملوك، وعن الترك ومجلس المبعوثان.

وكنا نتخيل أموراً لا يمكن وقوعها ونتحدث فيها مثل التفكير في الفرار من السجن، فأحمل السيد على الاستجابة لفكرة الهرب من السجن بعد أن بحثنا الفكرة مع كل الاحتمالات والعواقب.

ولما كنت شاباً والشباب لا يخلو من التهوُّر فإنني ما كنت لأصغي إلى ما يذكر لي السيد من الأخطار، فكنت أتهمه بالجبن والخوف، فكان يقول: «الخوف حق، أما الجبن فلا، ولكن الفرار متعذِّر».

وكنت أمضي إلى السطح المجاور للغرفة أستكشف، وأسأل السيد عن الطريق فيدلني ثم يقول: «وما نصنع بعدُ؟ أتظن أننا نستطيع الهرب؟ فإذا استطعناه أفتظن أننا ننجو؟ كلا، إن من يرانا سيقبض علينا، فنحن حَضَرٌ والبدو أعداؤنا وسيقبضون علينا ويسلموننا إلى الحكومة».

وندع فكرة الهرب مستسلمين للقضاء والقدر ولكني أعود

إليها لأن الفراغ يجبرني على التفكير في الهرب وليس غير الهرب، أما العواقب فلا أبحثها، وإن كان السيد حفظه اللّه يعمل على ثَنْي عزمي.

ولما فرقوا بيني وبين السيد، وعزلوني في غرفة خاصة بي كان الفراغ مملاً، فكنت أشغل نفسي بالتفكير، كما كنت أشغل نفسي بحفظ الأشعار، وبالنزول إلى غرفة البرج أدخن السجائر، وأنظر من الكوى إلى الشارع والمارة، وقد يصلني بعض أحاديثهم.

ولم يزرني أحد قطُّ كما لم يزر السيد أحد، ولم يُعَنِّ أحد من إخواني أو أقاربي نفسه بالشخوص إلى الرياض لزيارتي لأن زيارة سجين المصمك ممنوعة، فداخله لا يُزار.

وذات صباح فوجئت بجار لنا، جدار سكنه متصل بجدار دارنا بمكة المكرمة، فهو أقرب جار لنا، فوجئت به يدخل عليَّ في غرفتي بسجن المصمك مع أحد جنود السجن، وتركه ومضى إذ اطمأنت إدارة السجن إلى الزائر والزيارة، فأعفونا من المراقبة.

وسررت بزيارته واستغربتها، وكيف حصل على الإذن بالزيارة وهو متعذِّر، والإذن بيد الملك نفسه، وزاد ذلك من استغرابي فسألته بعد الترحاب به، وبينما نحن نشرب الشاي والسجائر قصّ علي قصة الزيارة.

وأذكر للقارئ أن جاري هذا يُدعَى «عبد اللطيف خان» وهو سائق سيارة، ويعمل سائقاً لدى الشركة العربية للسيارات بمكة

المكرمة، ولها فروع في جدة والمدينة المنورة والطائف والرياض.

وأرسلتْ وزارة المالية حوالى ثلاثين سيارة تحمل تموينا للملك عبد العزيز في منتجع له، وكان قريباً من الرياض، وفي بلادنا الديمقراطية الحقُّ، فالسائقون يجلسون مع الملك في سُفْرته، يأكلون معه.

وهذا شيء لا يقع في أقطار العالم ولا يُعرف هذا اللون من الديمقراطية في غير بلادنا أو الأردن عند الأمير عبد اللَّه أمير شرق الأردن.

وقال عبد اللطيف خان للملك وكان في ساعة طيبة صباحاً: «يا طويل العمر، ابن عمي سجين بالمصمك، وأريد زيارته، وأرجو صدور أمركم بالسماح لي».

وكان مدير شرطة الرياض عند جلالة الملك فقال له: «يا بن عطيشان، خلِّ هالرجّال يقابل ابن عمه بالمصمك».

وأمر جلالته بإحسان معاملته، وهكذا زارني بأمر ملكي كريم، وسألت جارنا العزيز عن حال أمي وإخوتي الخمسة وعن أقربائي، وهو يعرفهم جميعاً، فذكر لي أن جميعهم على خير حال لولا التفكير فيّ والقلق عليّ.

وسألني إذا كنت أحتاج إلى شيء فشكرت له، وطلبت إليه أن يبلغ أهلي أني بخير كما يرى.

وتأكيداً لأمي أنني بخير وفي سعة رأيت أن أبعث إليها بمبلغ من المال، فسلمت جارنا مئة ريال فرنسي ليسلمها والدتي يداً بيد عن طريق زوجته.

وسرتني زيارة جاري عبد اللطيف، وسعدت بها، فكل أهلي وأقاربي وأصحابي وزملائي بخير كما أخبرني.

ولعل القارئ من غير السعوديين يعجب من هذه الديمقراطية الصحيحة الطبيعية، فسائق سيارة نقل لشركة أهلية ومن العامة الأميين يجلس إلى مائدة الملك يأكل معه، ثم يتحدث إليه ويطلب منه هذا الطلب العزيز، فيجيبه الملك إلى ما طلب ويوصي به.

وإذا كان الملك العظيم بهذه الديمقراطية فإن الإسلام يأمر بها، ولهذا ربَّى ابن سعود أولاده على هذه الأخلاق الكريمة.

وخير تسلية في المصمك بالنسبة لي هي القراءة، ولو كانت لدي مكتبة لقرأتها في سجني، وما أدري متى تكون في سجوننا مكتبات؟ ومتى يكون السجن أداة إصلاح وتهذيب لا أداة إهانة وتعذيب؟

أرجون أن يكون في مقبل الأيام بمشيئة اللّه[1].

---

(1) أكتب هذه التعليقة في شهر ذي القعدة سنة 1400هـ حيث تغيرت السجون في المملكة العربية السعودية، فالسجين يتمتع بكل حقوقه، والعناية الطبية موفورة، ويصرف لكل سجين مبلغ كل يوم، ومن حقه القراءة والكتابة، ومن أراد من الأميين التعلم حققت إدارة السجن له ما يريد، ومباح للسجين أن يُزار من قِبَل أهله وأصدقائه، ولعل وزارة الداخلية تسمح للسجين أن يبيت لدى أهله كل أسبوعين مرة، وفي الأعياد، وأن تسمح للسجين السعودي بالحج أسوة بالحاج الأجنبي السجين الذي تيسّر الوزارة له الحج يؤدي الفريضة أداء تاماً على نفقتها، فهي مشكورة على هذه المكرُمة.

الجمعة والعيدان

الفارق بين سجن المصمك بالرياض والسجن في مكة كبيرة، فطعام سجناء المصمك وشرابهم وكسوتهم على حساب الملك، وللخاصة معاملة خاصة دون العامة.

أما في سجن مكة فلا تنفق الحكومة على طعام السجناء وشرابهم وكسوتهم شيئاً، بل طعام الفقراء على زملائهم الموسَرين.

وسجين المصمك لا يُزار إلا نادراً، وسجين مكة يُزار، ومسموح له بالتدخين والشاي في جميع الأوقات في غير شهر رمضان المبارك، أما في سجن المصمك فممنوع على السجناء شرب السجائر والشاي مسموح به لخاصة السجناء.

وكان في سجن الطبقة الأرضية سجناء من الحجاز طلبوا إليّ أن أعطيهم بعض السجائر وذلك عندما تسلقت الحائط ونظرت إلى أسفل وحيّيتهم فردوا التحية وطلبوا إليَّ سجائر فألقيت بعلبة سجائر وعلبة كبريت، وطلبوا إليّ شاياً يعينهم على احتمال البرد فوعدتهم خيراً.

ورجوت مدير السجن الشقاري ووكيله الأحيوي أن يعطوا السجناء الحجازيين براداً كبيراً من الشاي على

حسابي، فوافقا وأخذا يبعثان إليهم بالشاي كل يوم مرتين: صباحاً، وبعد العصر.

أما السجائر فقد ثقبت في سقف غرفتهم ثقباً كنت أسقط لهم منه السجائر مدة وجودي في السجن حتى كتب اللّٰه لي الإفراج.

وفي سجن المصمك يصلي السجناء في المسجد الذي بداخله صلاة الجمعة، ففي الشتاء يصلون في غرفة مستطيلة مساحتها 5 × 7 أمتار، ويأتي إليهم إمام راتب يصفونه بأنه «مُطَوِّع» وفي الصيف في أرض مكشوفة مساحتها 10 × 15 متراً.

وفي كلا المسجدين دكة ارتفاعها متر كأنه منبر، ولا تُصلَّى الجمعة والأعياد بسجون مكة المكرمة والحجاز.

وصليت جُمَعاً كثيرة كما صليت بالمصمك عيد فطر واحداً وعيد أضحى واحداً سنة 1356هـ.

أما خطبة الإمام فيحفظها من كتاب، وأسلوب الخطبة ركيك، وإلقاؤه رديء، ولحنه كثير، ولا يتطرق في خطبته لمشاكل العصر وقضاياه، بل كانت كل مساجد المملكة كذلك حتى الحَرَمان الشريفان فخطباؤهما كانوا ينشؤون خطبهم على طريقة الأقدمين[1].

---

(1) أكتب هذه الهامشة في شهر ذي القعدة سنة 1400هـ وأقول: في هذه الأيام تغيرت خُطَب الجمعة في الحَرَمين الشريفين وفي كثير من مساجد الحاضرة أسلوباً وموضوعاً.

وكانت صلاة الجمعة والعيدين فرحة لنرى زملاءنا السجناء الحجازيين وكلهم من العامة.

وذات مرة لحن الإمام كثيراً في الخطبة، وبعد الصلاة استأذنت مدير السجن في التحدث إلى الإمام فأذِن ودار الحديث في غرفته وصوَّبت له أغلاطه في النحو في أدب فقبل ولم يستكبر، وأعجب مدير السجن ووكيله والسجانون بعلمي الذي فاق علم مطوِّعهم، وزادت مكانتي عندهم والحمد لله.

وكتب اللّه علينا أن نصوم رمضان في سجن المصمك، فكنا نصلي العشاء جماعة والتراويح عشرين ركعة، وفي عشر الليالي الأخيرة من رمضان كنا نحييها في صنوف من العبادات، وبين القيامين فترة راحة نشرب فيها الشاي والقهوة، والقراءة في كتاب ديني مثل رياض الصالحين، ثم نعود إلى الصلاة، ويعود السجناء إلى غرفتهم استعداداً للسحور.

وعندما انتهى شهر رمضان المبارك وأهلَّ هلال العيد انتشرت البهجة في السجن كله، فقد جاءت من الملك هبة مالية وكسوة: عباءة وثوب وإحرام لكل سجين من العامة، أما نحن الخاصة فتسلمنا كسوة فاخرة، فقد كانت العباءة من وبر الجِمال لأن الوقت كان برداً، وشال من الصوف وثوب من نسج نفيس، وهبة مالية كبيرة.

وفي الصباح اجتمعنا لصلاة العيد ثم خطبنا الإمام خطبة ليس فيها جديد.

وكان صديقنا السيد حسين قد استعد للعيد فذبح بعض الحمام كما صنع لنا طعاماً ممتازاً دعا إليه مدير السجن ووكيله وسمح لنا بأن نقضي العيد معاً، واعتذرا عن المشاركة في اليوم الأول، وشاركانا في اليوم الثالث.

وكتب اللَّه أن نقضي عيد الأضحى سنة 1356هـ بالمصمك ولم يكن الملك بالرياض، بل كان في الحجاز بمكة المكرمة ليقود حجاج بيت اللَّه الحرام، فقد كانت عادته منذ استيلائه على الحجاز سنة 1342هـ أن يحج كل سنة يقود الحجيج إلى عرفات.

ومع أن الملك كان بالحجاز فإن منحته للسجناء وصلت إليهم، فقد خصص لكل سجين في عيد الأضحى مثل عيد الفطر، ووصلتني أنا والسيد كسوتنا فاخرة مع منحة مالية غير الراتب الشهري المقرر، وتلك عادة الملك عبد العزيز مع السجناء في الرياض سواء أكان حاضراً بها أم غائباً عنها.

وزاد في مظاهر عيد الأضحى عن عيد الفطر المباركين أن عيد الأضحى امتاز بالأضاحي، فقد كثرت الذبائح، ومع أننا كنا سجناء فقد ضحَّى السيد وضحَّيْتُ أنا، إذ ذبح كل منا خروفاً طيباً سميناً، استبقى كل منا الثلث ووزعنا الثلثين على السجناء، واستعار السيد من إدارة السجن قدراً كبيرة، وطبخ الثلث الذي له بأرز، ومن براعته في الطهي حمَّر البصل في السمن المقدوح ثم رمى اللحم فلما احمرَّ عصر عليه الطماطم، وبعد عشر دقائق أو ربع ساعة وضع عليه الأرزّ

وغطّى القدر، فنبهته أنه لم يضع الماء حتى ينضج الأرزّ واللحم، فقال: «هذا فن في الطبخ لا تعرفه، ينضج الأرزّ واللحم على ماء اللحم نفسه، وستأكل أرزّاً ستأكل أصابعك معه!».

وكان ما طبخه يكفي خمسة عشر رجلاً، فقد حسبنا حساب السجناء الحجازيين ويبلغ عددهم حوالي ستة أو سبعة، وهم من عامة الناس، وقد أخبرناهم بوساطة إدارة السجن أننا سنرسل إليهم غداءهم!

وعندما انتهى الطهي قلت للسيد: «جاءتني فكرة، ما رأيك لو استأذنا إدارة السجن في السماح لأولئك السجناء أن يصعدوا إلينا ويتناولوا معنا غداءهم وشايهم، ثم ينزلون»، فراقته الفكرة، وناديت أحد الجنود، وطلبت إليه أن ينادي لنا «الأحيوي» وكيل السجن أو مديره، ومن حظنا كان كلاهما موجوداً، فأقبلا، ودعوتهما إلى أن يتغدّيا معنا من هذه الطبخة الفريدة الرائعة، ووصفتها لهما، فاعتذرا بأنهما مدعوّان، فرجوتهما أن يسمحا للسجناء الحجازيين بالصعود إلينا والغداء معنا في هذا اليوم المبارك، واللّه يجزيهما عنهم وعنا خير الجزاء، فوافقا على أن ينزلوا إلى غرفتهم بعد العشاء، وبذلك أسرفوا في الفضل إذ سمحا بأن يقضي أولئك السجناء يومهم الأول معنا.

ولقد ابتهج السجناء الحجازيون، ولم يكونوا مسجونين في كبير، وإنما فيما يشبه المخالفة أو الإثم بالنسبة لأهل نجد

والمطاوعة - وهم المشائخ - وغَرَفْنا الطعام في «تبسي» كبير يبلغ قطره متراً، وكان عددهم سبعة.

والحق، أن السيد طاهٍ فنان بارع، فقد نضج الأرزّ واللحم على ما يخرج منه من الماء نضجاً تاماً، وكان الطعام شهياً لذيذاً إلى أبعد حد.

وكان هذا اليوم بالنسبة لنا جميعاً عيداً سعيداً حقاً، فقد أكلنا وشربنا وتحدثنا، واستمتع المدخِّنون منا بالسجائر الفاخرة ماركة «غازي» وأعطيت كلاً منهم علبة مختومة من السجائر مع علبة كبريت ماركة السبع، وهو أشهر كبريت في الحجاز، ومن الحجاز وصل إلى نجد، وبالغت في إكرامهم إذ قلت لهم: «ليَدَّخرْ كل منكم العلبة المختومة. ودخِّنوا ما دمتم معنا من سجائري».

وكلما نفدت علبة أخرجت غيرها، وأذّن لصلاة العصر فأدَّيناها جماعة ثم المغرب ثم العشاء.

وبعد صلاة العشاء زارنا الشقاري مدير السجن، فشكرنا له فضله، وقلت له: «لقد جعلت عيدنا عيداً حقاً فلك الشكر، وجزاك اللَّه عنا كل خير، فما رأيك أن تتعشى أنت معنا وتأذَن لنا ولهم بأن يكونوا معنا في العشاء، وتُتمّ فضلك من غير نقص فيه إذا سمحت لهم بأن يناموا في الغرفة المجاورة لنا، وبعد أن يتناولوا الفطور معنا ينزلون إلى حجرتهم، وبذلك تجعل العيد عيداً سعيداً، وسيثيبك اللَّه أجزل الثواب».

وتأثر الشقاري بقولي، وقبل ما عرضت عليه، وحقق لنا رجاءنا، فطها لنا السيد الجليل العشاء طهواً رائعاً، وشاركنا بعض السجّانين فأكلوا وشبعنا جميعاً، ثم سمرنا إلى ما بعد منتصف الليل، واستيقظنا فجراً فأدَّيْنا الصلاة جماعة، وبعثنا اثنين من جنود السجن يشتريان لنا فولاً وهريسة ومطبقاً وخبزاً، وأفطرنا والحمد لله فطوراً ممتازاً.

وبعد أن شربنا الشاي واستمتعنا بالسجائر ومضى من النهار ثلثه ودَّعونا عائدين إلى غرفهم شاكرين لنا ما صنعنا، ولم نكن قد صنعنا غير الواجب.

وفي ليلة عيد الأضحى، وكذلك ليلة عيد الفطر يخرج الأطفال إلى الشوارع والأسواق يصخبون ويغنون ابتهاجاً بالعيد السعيد ويشاركهم الرجال، ويجرُّون من قصر الملك وسط البلد مدفعاً يخرجون به خارج الرياض فإذا ابتعدوا عنها أطلقوا إحدى وعشرين طلقة إيذاناً بانتهاء شهر الصوم المبارك وتهيأوا لاستقبال العيد السعيد.

ويقضي الناس ليلة العيد ساهرين يملأون الأسواق يشترون ما هم في حاجة إليه من ملابس وأحذية وحلوى العيد وحاجاته من طعام وشراب، ويسهرون إلى الفجر، ثم يخرجون لأداء صلاة الفجر ثم بعد ذلك يصلون العيد، ثم يعودون إلى منازلهم ليستقبلوا المهنئين.

أما نحن السجناء فقد صلينا الفجر في غرفنا، ثم نزلنا إلى مسجد السجن في ملابسنا الجديدة التي كسانا إياها

الملك عبد العزيز وخطبنا الإمام خطبة من كتاب لم أتبينه، وأسلوب الخطبة ركيك.

ويظهر أن عادات الأطفال في كل البلدان متقاربة في الأعياد فيخرجون زرافات ووحداناً إلى الأسواق ثم إلى البيوت يُعيِّدون، ويعطيهم الناس «العيدية» نقوداً، وتمتلئ الأسواق والأزقة والشوارع بالأطفال وصخبهم وضجيجهم.

وأدَّينا صلاة عيد الأضحى بمسجد السجن، ودعونا اللَّه في سجودنا أن يغفر لنا وألا يؤاخذنا بذنوبنا، وأن يفرج عنا، وأن يعيدنا إلى بلده الأمين سالمين غانمين معزَّزين مكرّمين، آمين.



بُشرى الإفراج

عندما رأى «أبا حسين» رؤياه، وعبَّرها له أحد المعبِّرين بأن السجين سيفرج عنه بمشيئة اللّٰه شعرت براحة نفسية، وتفاءلت كثيراً، منتظراً ساعة الفرج.

وما كاد يمضي على رؤيا أبا حسين أسبوع حتى جاءت البشرى، فقد كنت جالساً وحدي بغرفتي بعد صلاة العصر فإذا مدير السجن يجري إليَّ ويقول لي: «أبشر يا أحمد، إن مدير الشرطة ابن عطيشان يسلّم عليك، ويبلغك أن جلالة الملك قد أصدر عنك عفواً عاماً، فقد تلقى ابنُ عطيشان برقية من مدير الأمن العام مهدي بك يطلب إليه فيها أن يبشِّرك بأن جلالة الملك المعظَّم قد أصدر عفوه العام عنك».

وهنأني بالعفو أجمل تهنئة، فقلت له: «الحمد لله هذا الفضل منه جلَّ جلاله، فمتى يكون الإفراج؟».

فقال: «ما دام العفو قد صدر، فإن الإفراج سيكون خلال بضعة أيام إن شاء اللّٰه إن لم يكن غداً».

وكنت مُدَّخراً مبلغاً كبيراً من الريالات الفرنسية دفنتها في أرض غرفة البرج للطوارئ، فما يدري سجين مثلي ما تخبئه له الأيام، وقمين أن نحتاط لحياة السجن، فلما أبلغني مدير

السجن عن مدير شرطة الرياض نبأ العفو عني رسمياً أيقنت أنني سأغادر السجن خلال بضعة الأيام القادمة، واعتقدت أنني سأخرج غداً أو بعد غد، ولا أستطيع أن أعبِّر عن شعور الفرح، ومن أدلته أنني مضيت إلى كنزي الدفين المُدَخَّر وأخرجته، فإذا عندي مئتا ريال فرنسي، وهذه ثروة كبيرة بالنسبة لي، ولكن، لما كان السجن - وبخاصة سجن المصمك - كريهاً مقيتاً فما أحببت أن يكون معي منه شيء، بل عزمت على التخلص من كل شيء جاءني بسببه.

ووزَّعت على السجناء الحجازيين حوالي نصف المبلغ، واشتريت خروفين وأرُزّاً وسمناً وطلبت إلى مدير السجن أن يجعل طباخاً يصنع طعاماً يوزعه على السجناء. وأعطيت أبا حسين كل ما بقي عندي وكان حوالى مئة ريال فرنسي.

ومضت ثلاثة أيام ولم يُفْرَج عني فقلقت، وسألت مدير السجن الشقاري فطمأنني قائلاً: «فرج اللَّه قريب».

وقد علمت أن الملك غادر الحجاز وهو في طريقه إلى الرياض، ولكنْ غير معلوم يوم وصوله إليها.

وصارت الأيام أسبوعاً، ثم مضت على الأسبوع الأول بضعة أيام، ونَفدَ كل ما لديّ من نقود، ولم أرد أن أسترد من «أبا حسين» شيئاً مما أعطيته، وكانت عندي ساعة ذهبية اشتريتها بمالي وليس الذي كان يجيئني بسبب السجن، وأعطيتها «أبا حسين» يبيعها لي، فأبى، وأخرج من جيبه كيساً به حوالى عشرة ريالات فرنسية وقدَّمها لي فأبيت واعتذرت،

وأصررت أن يبيعها لي، ولن أعدل مهما كان عما قررت.

ومضى بالساعة إلى السوق ثم عاد وقدم لي خمسة وعشرين ريالاً فرنسياً، أعطيته أربعة ريالات يشتري منها لنا لحماً وبعض أشياء أخرى لنطهو الغداء بحيث يكفينا للعشاء أيضاً.

ونفدت قيمة الساعة بعد ثلاثة أيام، فأعطيته بساطاً عجمياً صغيراً يبيعه لي؛ وأراد أن يرد لي بعض ما منحته إياه فأبيت، وأقسمت، فباعها وجاءني بثمنها وأخذت أنفق منه حتى كاد ينفد.

ومضى على نبأ العفو الذي بُلِّغتُه حوالي عشرين يوماً فسخطت وضقت وكتبت رسالة لابن عطيشان، وها هو ذا نصها:

سعادة الأخ محمد بن عطيشان مدير شرطة الرياض

سلام اللّٰه عليك ورحمته وبركاته، وبعد: فقد مضى على إبلاغكم إياي نبأ عفو جلالة الملك عني أكثر من عشرين يوماً، ويعلم الأخ صالح الشقاري مدير المصمك أنني وزعت أكثر من مئتي ريال فرنسي على السجناء حتى نفد كل ما معي من نقد، لأنني كنت أعتقد أن الإفراج عني سيكون بعد بُشراكم إياي بيومين أو ثلاثة، وما كانت لي حاجة إلى نقود كثيرة فوزعت كل ما كنت أدّخره وما كان معي من الدراهم حتى بعت ساعتي الذهبية ثم بعت بساطاً عجمياً لأنفق من ثمنهما على طعامي وشرابي.

فإذا كان العفو عني حقاً فلا ضرورة لبقائي سجيناً، وإذا لم يكن هناك عفو حقاً هيأت نفسي للبقاء حتى يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً.

وأرجو بذل جهدكم الذي أرجو أن يثمر الإفراج عني بمشيئة اللّه عز وجل.

ولكم الشكر والتحية من الذي صدر عنه العفو الملكي وما يزال في السجن.

(التوقيع)

أحمد عطار الحجازي



لقد أُطْلِقَ سراحي

لقد مضى على إبلاغي نبأ العفو عني حوالي شهر، وضقت أشد الضيق، فلا أنا سجين - كما كنت - مستسلمٌ لقضاء اللّه، ولا أنا على أبواب الإفراج عني، فبقيت مشدوداً بين قوتين تتجاذبانني في عنف فأزداد ألماً وضيقاً وقلقاً وسخطاً.

ونفد كل ما معي من النقود التي تُعدّ ثروة كبيرة بدّدتها كلها عندما بشَّرني مدير السجن بعفو الملك عني عفواً عاماً.

ووصلت رسالتي إلى «ابن عطيشان» فوعد خيراً، ودعوت اللّه مخلصاً فاستجاب وهيأ الأسباب، فقد وصل الملك إلى الرياض، وأقامت له شقيقته الجليلة نورة حفل استقبال وعشاء بقصرها، وذبحت - كما علمت - فيما بعد من ابن عطيشان - أربعين خروفاً، وكان ابن عطيشان حاضراً بحكم وظيفته، وانتهز الفرصة وقال لجلالته: «يا طويل العمر، إن مهدي بك قد أبرق إلي برقية طلب فيها أن أبشِّر السجين أحمد عطار الحجازي نبأ عفو جلالتكم عنه، فأبلغته وذلك منذ شهر، وما يزال سجيناً حتى الآن».

فرد عليه جلالته: «أإلى اليوم لم تطلقوا سراحه؛ الآن،

أفرجوا عنه، ودعوه يرجع إلى مكة بسيارة البريد».

وكان الأمير محمد بن عبد العزيز - النجل الثالث بترتيب المولد لجلالته، فأكبرهم سعود ففيصل ثم محمد ثم خالد - ولما انتهى الحفل قال ابن عطيشان لسموّ الأمير محمد، إن سيارة البريد قد مشت من الرياض إلى مكة عصر هذا اليوم، وتعلمون أن سيارة البريد تغادر الرياض كل خمسة عشر يوماً، وأحمد عطار قد ضاق، فما رأي سموّكم، ولعلكم تأمرون الشركة بتأمين سيارة كبيرة تعود به إلى مكة.

فقال سموّ الأمير محمد - بارك اللّه فيه ومدّ في حياته - : «بلّغ أمري لصابر بتجهيز سيارة لمكة، وسأبعث إليك إحدى سياراتي مع ابن عبيِّد ليركب الأستاذ فيها، وسيارة الشركة لعفشه».

فشكره ابن عطيشان، وعاد إلى إدارة الشرطة وكلّم مدير الشركة - وهو من مكة واسمه صابر أبو طالب وكان يعرفني من مكة ويعلم أنني سجين - وأمره بتجهيز سيارة تنتظر خارج باب سور الرياض الآن حسب أمر سموّ الأمير محمد بن عبد العزيز، وقيد الحساب على الديوان.

وأمره بأن يكون فسح السيارة باسم أحمد عطار الحجازي لنقل عفشه.

ففرح الشيخ صابر أبو طالب، وكانت السيارة حاضرة جاهزة، وهي جديدة وقوية، وسائقها من مكة، وأوصاه خيراً بي، وجاء هو نفسه إلى المكان المعيَّن خارج باب سور الرياض، وأخذ ينتظر مجيئي.

وأبلغ ابن عطيشان مدير السجن بإطلاق سراحي فوراً، وأخبره أن يرسلني مع أحد الجنود إلى خارج باب سور الرياض حيث يجد سيارة (لوري) مُعَدَّة للركاب في انتظاري، ويتركني بها ويعود الجندي، وأمره أن يبلغني تهانيه، ولولا أنه ماضٍ إلى جلالته لجاءني مهنّئاً ومودِّعاً وأمره بالاعتذار إلي.

وطلب إلى مدير السجن أن تنتظر السيارة الكبيرة حتى يحضر ابن عبيد لمرافقة الأستاذ إلى الطائف حسب أمر سموّ الأمير محمد بن عبد العزيز.

وجاءني مدير السجن يبشِّرني بأنه صدر الأمر بالإفراج عني الآن، وطلب إلي أن أجمع أشيائي لأغادر السجن فوراً.

وبينا أنا أرتدي ثوبي الذي جئت به من مكة المكرّمة إلى الرياض، وأكملت ارتداء ملابسي تسابق إلى غرفتي بعض جنود السجن يبشِّرونني، وأمسك كل منهم بشيء من أشيائي، هذا ببساطي، وثانٍ بفراشي، وثالث بعبائي، فطلبت إليهم أن يغادروا الغرفة، ثم أعطي من أشاء ما أشاء، فخرجوا طائعين، فقد أدركوا أنني حر، ولست بسجين، ولا سلطان لهم عليّ.

وناديت «أبا حسين» وكان عند باب الغرفة من الخارج، وأقبل إليّ وهو سعيد مبتهج، وأخرج لي من جيبه ساعتي الذهبية وقدَّمها لي قائلاً: «عندما أجبرتني على بيع الساعة عرضتها للبيع لأعرف ثمنها، وعرضتها على ثلاثة أشخاص

دفع كل منهم ثمناً غير ثمن الآخر، وكان أغلى ثمن الثمن الذي أعطيته إياك، وها هي ذي الساعة أردّها لك، لأنه لا ساعة لديك».

فشكرته، وأعدت إليه الساعة، وقلت له: «كل ما في الحجرة لك وحدك وملكك، وأرجوك ألا تعطي أحداً منهم شيئاً».

وكانت لي «بطانية» جئت بها من مكة ومخدة بقيتا سليمتين وأخذتهما معي مع ثوب وإحرام وسروال كنَّ معي من مكة، وما عدا ذلك أعطيته أبا حسين.

وكان في جيبي بعض الريالات الفرنسية أعطيتها كلها أبا حسين، وخرجت من السجن بملابسي المكية، وبالبطانية والمخدة اللتين صحبتاني من مكة، خرجت أقل مما دخلت، حتى الحذاء الجديد الذي اشتراه لي أبا حسين من مالي تركته، وانتعلت الحذاء الذي كان معي من مكة وأمضى معي في السجن سبعة أشهر وعشرة أيام حتى صار الجلد من جفافه كأنه خشب.

وحمل أبا حسين البطانية وقد لففت بها المخدة وثوباً وسروالاً وإحراماً أغيّر بها ملابسي التي أرتديها، وهي التي كانت معي من الحجاز، أما الملابس التي اشتريتها من الرياض فقد تركتها لأبا حسين.

ولم أكن ألبس وأنا بمكة المكرّمة العباءة فتركتها، وحمل أبا حسين البطانية بما فيها، ولمّا كنت أودّع مدير

السجن ووكيله دسَّ أبا حسين في البطانية العباءة الفاخرة والنقود التي كانت يجيبي، إذ علم أنه لا نقود معي بَتَّة.

وجئنا إلى السيارة الكبيرة المنتظِرة وبها بعض الركاب الحجازيين، وإذا الشيخ صابر أبو طالب مدير فرع الشركة العربية للسيارات بالرياض جاء لتوديعي وتهنئتي، فما كاد يراني حتى أسرع إليّ يعانقني وبكى من الفرح رعاه اللّه وحفظه وودّعني هو وأبا حسين وانصرفا.

وركبت السيارة الكبيرة مع ركابها وأنا سعيد كل السعادة فقد صرت حراً طليقاً، وكانوا هم سعداء فرحين بإطلاق سراحي، وكان السائق أشدهم فرحاً.

وأذِّن لصلاة المغرب فأدّيناها جماعة قصراً وجمعاً، وبعد الصلاة أقبلت سيارة جديدة صغيرة فخمة وفيها ابن عبيِّد أحد خواصّ رجال الأمير محمد بن عبد العزيز ورأيت في السيارة سائقها وشاباً آخر، وحيّاني أبا عبيِّد وقدّم لي نفسه بعد أن أبلغني تهانئ الأمير العظيم محمد بن عبد العزيز وتحياته، وأنه أعطاه كل مصروفات الطريق إلى الطائف، إذْ أمروا أن يسلموني الأمير فيصلاً نائب جلالة الملك المعظم، ودعاني لمغادرة السيارة الكبيرة والركوب معهم في السيارة الصغيرة، فشكرت له، وقلت: «إنني مرتاح في مكاني؛ ورجوه أن يدعني حيث أنا».

ومشت السيارة الصغيرة تتبعها السيارة الكبيرة، ويعلم اللّه أنني شعرت بسعادة غامرة، فلقد ولدت من جديد،

وهأنذا عائد إلى بلدي: بلد اللّه الحرام، وإلى أمي وإخوتي وأهلي وأصدقائي وأقاربي.

وكان ابن عبيد قد استعد بخروف حنيذ من مطبخ الأميرة نورة، وأرزّ وخبز وفواكه وتمر، فلما وصلنا «الجُبَيْلة» أول منزل من الرياض إلى مكة المكرمة ووقف ابن عبيد ووقفنا، قال ابن عبيد: «ما رأيك أن نتعشى هنا، وبعد العشاء نواصل السير فنبيت بالعُوَيْند؟».

قلت: «الرأي ما ترى».

ونزلنا، وأشعلوا النار للشاي وتسخين الخروف والأرز، ومُدَّت السفرة، ودعوت سائق السيارة الكبيرة وركابها ليشاركونا فأقبلوا على استحياء، وتعشينا عشاءً طيباً، فقد كان الخروف الحنيذ لذيذ الطعم ناضجاً، وكذلك الأرزّ، ثم تناولنا الشاي، واستعدّ الجميع للرحيل، وكنت قد أنست بابن عبيد ولطفه وأدبه، فلما دعاني للركوب معهم لبّيْت، فركِبت أنا في المقعد الأمامي بجانب السائق، وركب ابن عبيد ورفيقه في المقعد الخلفي.

وصلنا العويند وكان ابن عبيد قد استعد بفُرش وبُسُط من قصر الأمير محمد، ولما جئت إلى بطانيتي فوجئت بالعباءة وبالنقود اليسيرة وأدركت أن أبا حسين أدرك خلوّ يدي من النقود فدسَّها في بطانيتي وأعاد العباءة أيضاً.

وصحونا فجراً، فصلّينا جماعة، ثم أفطرنا خبزاً وجبناً وتمراً، وتناولنا الشاي والقهوة، واستعددنا للرحيل.

من مَرات إلى الطائف

غادرنا العُوَيْند إلى مَرات، ووصلناها ونحن أشد ما نكون نشاطاً وبهجة، واشترى لنا عبيد خروفاً ضخماً سميناً صغير السنّ كبير الحجم، وتطوّع مَن معنا من الحجازيين أن يتولوا إعداد الغداء، وكان السائق مستعداً «بالأبازير» فطبخوا قسماً من الخروف مُعرَّقاً حجازياً، وأكثره «سليقاً».

وكانت رائحة المعرَّق قد فتحت شهيّتنا للأكل، وبينا نحن ننتظر نُضْج الطعام مضيت أبحث عن صاحبتنا البدوية الحسناء فرأيتها وحيّيتُها فردّت التحيّة، وأعطيتها العباءة والريالات الفرنسية، إذ كانت من نصيبها، وسررت من أبا حسين الذي أعادهما إليّ.

ولما نضج الطعام قلت لسائق السيارة الكبيرة: أرجو أن تَغْرِفَ لهذه البدوية الشابّة صحن أرز باللحم السليق، وصحناً آخر من المعرَّق قبلنا، وحملت أنا الطعام إليها فعبَّر وجهها الباسم عن شكرٍ جزيل.

والحقّ، أن الطعام كان جدّ لذيذ، فبين مَن هم معنا طهاة ممتازون حاذقون.

ووصلنا إلى الدوادمي ومضيت إلى الأستاذ حمّاد العبدلي

الذي سرّته زيارتي، وهنّأني بالإفراج عني، ودعانا للغداء، فشكرته، وقلت له: نحن طوال هذا الطريق من الرياض إلى الطائف ضيوف سمو الأمير محمد بن عبد العزيز.

وقد أسرع ابن عبيد واشترى خروفاً طهاه الطهاة الحجازيّون، وبعد الغداء نمت سويعة ثم صحوت نشطاً، وقال لي حمّاد العبدلي:

ألا تبرق إلى أهلك بمكة؟ قلت: لا ضرورة للإبراق. قال: بشِّرهم ليطمئنوا، فأعددنا برقية هذا نصها:

مكة - الشارع اليوسفي.

أخي حسن عبد الغفور عطار.

وصلنا الدوادمي، وأنا بخير، وإذا وصلت الطائف سأبرق إليكم.

وغادرنا الدوادمي، ولم أحس بتعب الطريق ولا الرمال ولا «المطبات» فقد شغلني السرور والسعادة عن الشعور بالتعب.

وبينا نحن في الطريق مقبلون على المُوَيْه رأينا سيارتين تحملان أواني طبخ، وأشار لهما ابن عبيد فوقفتا، وسأل لمن يكون هذا المطبخ، فقيل له: للشيخ محمد سرور الصبان. ففرحنا وسألنا: أين الشيخ؟ فقيل: إنه خلفنا - أي خلف سيارتَيْ المطبخ.

ومشينا فرأينا على البُعد سيارة تنهب الأرض كما كانت سيارتنا تنهبها، ورأى كل منا الآخر فوقفت السيارتان،

ومعروف أدب الشيخ محمد سرور وتواضعه وكرمه ومكارم أخلاقه، ففتح باب سيارته وغادرها إلينا، وصنعت صنيعه فعانقني وقبَّلني ثم حيّا الآخرين، وكان يعرف ابن عبيد الذي أخبر الشيخ محمداً أن الأمير محمداً هو الذي هيأ هذه الرحلة وعلى ضيافته، فقال الشيخ محمد: الفضل من معدنه لا يُستغرب.

ثم أمسك الشيخ بيدي وقادني إلى سيارته وجلست بها إلى جانبه، وسألني: «لماذا تأخرت، إن عفو جلالة الملك مضى عليه أكثر من شهر»، فقصصت عليه القصة في إيجاز ففرح وهنأني وتمنى لي الخير، وكانت تحت قدميه شنطة جلدية، وأدخل يده فيها ثم أخرجها وهي تقبض حفنة من الجنيهات الذهبية، فشكرت له قائلاً: يا شيخ محمد، فضلك علي سابق وسابغ وعميم، وأقسمت أن أدخل مكة وليس معي قرش فأرجو أن تساعدني على البِرِّ بيميني، وإذا أكرمنا اللّٰه بعودتك إلى مكة وأنت على خير حال بمشيئة اللّٰه فسأقصدك إذا احتجت.

وودعْنا الشيخ ووجهتنا «المويه» ووصلناها قبيل الظهر، واشترى ابن عبيد خروفاً طهاه لنا طهاة الحجاز، وبعد الظهر واصلنا السير إلى العشيرة، وتعشينا بها، وقال لي سائق السيارة الكبيرة: «أنأتي معك إلى الطائف ثم إلى مكة؟» قلت: «إنني ماضٍ إلى الطائف لمقابلة الأمير فيصل، وما أدري متى أغادر الطائف إلى مكة المكرَمة؟».

وأذنت للسائق أن يتجه من العشيرة إلى مكة، وسألت ابن عبيد: «أهناك ما يمنع توجه السيارة الكبيرة إلى مكة من العشيرة دون أن تصحبنا إلى الطائف».

فأجابني أن الرأي لي، فأذنت للسائق فودعني هو ومن معه من الركاب، وافترقنا، هم إلى مكة ونحن إلى الطائف.



مقابلة الأَمير فيصل وحفاوة بعض المعارف

غادرنا بالسيارة الصغيرة المويه إلى الطائف، وقد يسَّر اللَّه الرفيق والطريق حتى وصلنا الحَوِيَّة عِشاء، وتناولنا عشاءنا، ثم واصلنا المسير، وبتنا في مقهى يبعد عن الطائف بضعة أميال.

وصلّينا الفجر، وأكلنا بعض التمر وشربنا القهوة، ثم سرنا إلى دار الشيخ فهد بن غِشِيّان رئيس تشريفات الأمير فيصل وأخبره ابن عبيد خبري، فاستقبلنا بحفاوة، وأفطرنا عنده إفطاراً ممتازاً.

وصارت الساعة الثانية صباحاً، فسلّمني ابن عبيد إلى الشيخ فهد، وغادَرَنا بعد الإفطار عائداً إلى الرياض، فقد انتهت مهمته.

قلت للشيخ فهد: «إن الأمير فيصل لن يحضر إلى «النيابة» قبل الساعة الثالثة والنصف، وأرجو أن تسمح لي بالتجول في السوق قليلاً»، فاستجاب لرجائي وأصحب معي أحد رجاله ليضمن عودتي إليه.

وبينما أتجول في وسط البلد قرب مبنى إدارة شرطة

الطائف كان مديرها الشيخ صالح باخُطْمة يطل من النافذة فرآني وكان يعرفني حق المعرفة، وكان شقيقا زوجته زميلين لي في الدراسة وصديقين، فناداني باسمي فوقفت، ودعاني للصعود إليه، فصعد معي المرافق، ورحَّب بي أعظم ترحيب، وهنأني بسلامة القدوم وبالإفراج عني، وسأل عن المرافق فأخبرته، فطلب الشيخ باخطمة الشيخ فهداً بالهاتف وقال له: «إن الأستاذ العطار عندي وعلى كفالتي وأعيد إليك المرافق، وسأصحبه إليك عندما يشرف الأمير».

وطلب لي شاياً فشربت، ودخنت، وقلت له: «أمضي إلى البريد ثم أعود إليك»، فسمح لي، وكان مبنى البريد قريباً من إدارة الشرطة، وكان مدير البريد الشيخ سعيد أبو ناصف من كرام الرجال ومن رجال الأمير فيصل. وكان يعرفني أيضاً، ويعلم بسجني، فما كاد يراني حتى خفّ إليّ واستقبلني وعانقني وهنأني، وطلب لي الشاي، وذكرت له أنني جئت إلى الطائف أو جيء بي إليه لأقابل الأمير فيصل وأستأذنه في الذهاب إلى مكة، فقال: «سأمضي معك»، وكلّم الشيخ صالحاً بأنني عنده وأنه سيصحبني إلى الأمير فيصل، فقال له: «أمرك، ولكن الأستاذ العطار سيتغدّى عندي فأرجو أن تتكرم وتتغدى معنا، فوافق، حفظهما اللّه».

وبينا أنا عنده حضر أحد موظفيه وهو يحمل زوجي إحرام: إزار ورداء من النوع الراقي، وقدّمه لي الشيخ أبو ناصف لأحرم به وأدخل مكة محرماً، وهذا ما كنت قد اعتزمته.

وعندما حان موعد حضور الأمير فيصل خرجت مع الشيخ سعيد ووجْهتنا دار النيابة، وإذا الأمير قد وصل، ورآنا الشيخ فهد وسمح للشيخ سعيد بالدخول وأنا في صحبته، فإذا الأمير فيصل جالس على «لَيَّانة» وما كاد - أطال اللَّه بقاءه - يراني حتى أفْضَلَ بالقيام، واستقبلنا بحفاوة وبشاشة وابتسام، ورأيت عنده الشريف عبد اللَّه منديلي أحد أوائل الحجازيين الذين تعلموا الطيران في إيطاليا التي رحّب بهم زعيمها موسوليني واعتبرهم ضيوفه مجاملة من «الدوتشي» للملك عبد العزيز، وكانت غرفة الاستقبال على الطراز الحجازي، مقاعد من القطن كالمراتب عرضها 70 سنتم مبسوطة على ثلاثة جوانب من الغرفة إلا الجانب الذي به الباب فلا مقاعد فيه، وكان الجلوس على الأرض المفروش عليها بساط عجمي، أما غرفة المكتب ففيه كراسي، كما أن بالنيابة غرفة استقبال بها كراسي وثيرة وفخمة، وتتسع لأكثر من ستين كرسياً.

ومعروف عن الأمير فيصل البلاغة والفصاحة والإيجاز وحُسن المنطق ودماثة الأخلاق والتواضع، وهنأني سموّه ثم قال: «إن الملك عبد العزيز والد لا شك، فهل يغضب الابن على أبيه أو يحقد الابن على أبيه إذا قسا عليه، ولو كان الابن لم يخطئ ولم يذنب».

قلت لسموّه: «كلا، طبعاً».

فقال سموّه: «فاعتبر الملك عبد العزيز والداً».

قلت لسموّه: «هو والد حقاً، ويعلم اللّه ما أنا بحاقد، وكل ما أرجوه أن يعلم أنني بريء».

قال سموّه: «قد علم جلالته، وقد أخبرته بكل شيء».

ثم استأذنت سموّه في التوجه إلى مكة المكرمة فأذن، وأثنى عليّ الشريف عبد اللّه منديلي والشيخ سعيد أبو ناصف وشهدا لي، وكان الشيخ صالح باخطمة حاضراً وشهد لي وقال لسموّه: إنه يعرفني منذ كنت صغيراً، وأطنب في الثناء عليّ، جزاهم اللّه عني كل خير.

وغادرت مجلس الأمير العظيم الذي كان لحديثه أطيب الأثر في نفسي، وخرج معي الشيخ صالح باخطمة، وبعث من نقل من دار الشيخ فهد البطانية التي لففت فيها المخدة والثوب والإحرام والسروال إلى داره، ومضينا إليها، وكان بها أحد أصهاره وزميل لي في المدرسة يدعى «رشاد اسكندراني» وكان موظفاً بشرطة الطائف دعاه الشيخ صالح ليكمل أنسي بالزميلين.

دخلت الحَمّام واغتسلت للإحرام، ولم أَنْوِه بعدُ، فلبست ملابس نظيفة، وشرف الشيخ سعيد أبو ناصف.

ونسيت أن أذكر أن الشيخ سعيد أبو ناصف اتصل بمكة تليفونياً وكلّف موظفاً ببريد مكة أن يمضي إلى أخي بالشارع اليوسفي ويخبره بوصولي إلى الطائف وتوجّهي بسيارة البريد من الطائف إلى مكة المكرمة.

ولأول مرة بعد سبعة أشهر وسبعة عشر يوماً آكل طعاماً مكّياً لذيذاً.

سبعة أشهر وعشرة أيام قضيتها في المصمك وأربعة أيام من مكة إلى الرياض، وثلاثة أيام من الرياض إلى الطائف، ومجموع هذه المدد سبعة أشهر وسبعة عشر يوماً.

وبعد الغداء ودَّعَنا الشيخ سعيد أبو ناصف وغادَرَنا إلى منزله وقال لي: «إن سيارة البريد تكون جاهزة قبيل أذان العصر، وسيكون مكانك في المقعد الأمامي بجانب السائق، وقد نبّهت على السائق بخدمتك وأن يكون تحت أمرك»، فشكرت له فضله وكرمه ولطفه.

وودعت الشيخ صالح باخطمة، شكر اللَّه له وللشيخ أبو ناصف فضلهما وجزاهما وجزى الشيخ فهد بن غشيان والأستاذ رشاد اسكندراني كل خير، ومضيت مع الزميل رشاد إلى داره حتى يحين موعد انطلاق سيارة البريد.

وبينما نحن نشرب الشاي عند الأخ الإسكندراني رأى حذائي البالي فأخذ الزوجين في يده وجمعهما ثم ألقى بهما بعيداً في الفضاء فصحتُ به: «لماذا قذفت به؟ إني كنت أريد الاحتفاظ به ذكرى!». قال: «احمد اللَّه على الخلاص».

وقدّم لي حذاء جديداً اضطررتُ إلى قبوله وإلا مشيت حافياً، ولا يمكن العثور على حذائي إذ لا يُعرف المكان الذي هبط فيه من القذفة الشديدة.

استقبال في الشرائع
ودخول مكة المكرّمة

غادرت منزل زميلي الأستاذ رشاد اسكندراني وهو معي قبيل أذان العصر بثلثي ساعة إلى البريد، فإذا السيارة جاهزة للسير، وخفَّ إليّ السائق محيّياً ومهنئاً، وتناول من الأستاذ رشاد البطانية بما فيها فقد حملها عني فضلاً منه وكرماً.

وأخذت مكاني في السيارة في المقعد الأمامي، وغادرنا الطائف، وكانت السيارة تطير، فهي جديدة وقوية، وسائقها من مَهَرة السائقين، فقد كانوا يختارون سائقي سيارات البريد من السائقين المَهَرة.

ووصلنا «السيل الكبير» وهو منزل بين الطائف ومكة ويكاد يكون في منتصف الطريق بينهما، ووقفنا به قليلاً ريثما جددت وضوئي وصلّينا العصر ثم أحرمت بالعمرة وصلّيت ركعتي الإحرام وشربنا الشاي بسرعة لئلا نتأخر، فقد تكهّن لي السائق بأن أهلي سيخرجون إلى الشرائع لاستقبالي.

وأسرعت بنا السيارة تطوي الأرض طياً، ووصلت الزَّيْماء التي لم نقف بها، بل واصلنا السير؛ وغربت الشمس

ونحن بين الزيماء والشرائع وإلى الشرائع أقرب، ووقفنا وصلينا المغرب، ثم واصلنا السير ودخلنا الشرائع وخفف السائق السرعة يمر بالمقاهي التي على الطريق، فرأى بضع سيارات صغيرة وسيارتي بوكس، ورأيت اثنين من إخوتي والصديق محمد خياط وبعض أقربائي وأصدقائي.

وقفنا عندهم، وقد كانوا متهيئين وقوفاً عندما أبصروا سيارة البريد قادمة من بعيد، ونزلت إلى مستقبِليَّ فأخذ كل منهم يعانقني ويقبّلني ويهنئني في سرور وبهجة وسعادة غمرت القلوب حتى فاضت على الوجوه وانتقلت بسماتٍ على الشفاه.

وكان بين المستقبلين صديقي السيد بكر مُدْهِر، فإن إخوتي عندما علموا بأنني قد وصلت الطائف وسأتوجه إلى مكة بسيارة البريد بعد العصر أخبروا أصدقائي وأقربائي وتواعدوا بأن يخرجوا إلى الشرائع، وأحضر محمد الخياط سيارة كما أحضر السيد بكر مُدْهِر سيارة بوكس، وأحضر إخوتي أربع سيارات: ثلاثاً صغيرات، والرابعة «بُكْساً» فجلسنا قليلاً وشربنا الشاي.

وأشار عليَّ المستقبِلون أن أؤدي مناسك العمرة فجراً وهو وقت جدُّ مناسب.

وودَّعَنا سائق سيارة البريد وزملاؤنا الركاب بها، وركبت أنا ومحمد خياط والسيد بكر مدهر وبعض الأصدقاء إحدى السيارات الصغيرة، وكانت كل السيارات مستأجرة، فما كان

أحد من المستقبلين يملك سيارة؛ بل كانت السيارات قليلة بمكة والمملكة.

وبدا لنا جبل النور الشامخ الذي به غار حراء، ثم بدت أنوار مكّة عليها سلام اللّه، فطارت نفوسنا فرحاً وحمدتُ اللَّه حمداً كثيراً، وكان مرورنا بجانب المسجد الحرام، واكتحلت عيناي بمنظر الكعبة المشرّفة الغراء.

وكان الموكب يسير في شيء من الأناة تتقدمه السيارة التي كنت بها، فكنا نمر - وقد مضى من الليل ثلثه - وكان العسس يرون الموكب فيحيّوننا حتى إذا دخل الموكب حي المسفلة كان العسس يهتفون كلما أبصروني في السيارة: لا عَتَرْ، ومعناه: لا عَثْر بعد الآن، وهو عند الحجازيين من العامة دعاء للسجين الذي يُفْرَج عنه بأن ينجيه اللَّه من العثار.

وكانت لنا بحي المسفلة داران: إحداهما لسكن الأسرة الكبيرة، والأخرى تقابلها من ناحية الشمال، بها حديقة غنّاء وبركة وصهريج ماء وأربع غرف؛ وكانت مخصصة لي أستقبل فيها الأصدقاء.

وذبحت أمي ثلاثة خرفان وُزِّعت لحومها، كما اشترت خروفين آخرين ذبحوهما للضيوف، وصنعوا «سليقاً» طهاه أعظم طاهي سليق بمكة المكرّمة.

ودخلت أول ما دخلت إلى أمي وخالتي وعمتي وكانت بدارنا، وقبَّلت أيديهنَّ، أَلْثِمها، ثم خرجت إلى مستقبِليَّ المنتظرين في الدار الأخرى. وتعانقنا، وقبَّل بعضنا بعضاً، ثم

مُدَّت الموائد فأكلنا وشربنا الشاي، وسمرنا، ثم انصرف الجميع إلا خاصة الأصدقاء منهم الأستاذ محمد خياط والسيد بكر مدهر، وابن خالي وعمتي عيسى ديوان، وابن عمتي أحمد شركار، وصديقي جميل شقدار، وبتنا جميعاً في دارنا هذه، وصحونا جميعاً قبيل الفجر وتوضأنا ومضينا إلى بيت اللَّه الحرام، وطفنا جميعاً، وأذّن المؤذِّن الأذان الأول، ومضيت إلى المسعى أسعى ومعي أصدقائي المار ذكرهم، وسعيت وأذن الأذان الثاني، وانتهيت من السعي، وعدنا إلى بيت اللّه، وانتظمنا في الصف الأول وصلّينا سُنّة الفجر، ثم صلّينا فرض صلاة الفجر، ولا أستطيع أن أعبِّر عن سعادتي لهذه الصلاة التي أدّيتها بين يدي بيت اللّه، والحمد لله على الفرج بعد الشدة.

وأمسكت بستار الكعبة كأني أريد أن أضمها، وأخذت أدعو اللَّه بقلب مؤمن خاشع سليم، ثم عدنا إلى البيت، فقد استعد إخوتي لإفطار أصدقائي.

وهكذا انتهى البلاء والعناء والكرب فقد أنعم اللَّه عليّ بالعودة إلى بلده الأمين وإلى أمي وإخوتي وأقاربي وأصدقائي.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة على أشرف المرسَلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مساعي العفو عنّي[1]

عندما انتهى الملك عبد العزيز من الحج سنة 1356 قفل راجعاً إلى الرياض؛ وكان جلالته يقطع الطريق بين مكة والرياض في شهر، فعندما غادر مكة نزل بالعشيرة وأقام بها حوالي عشرة أيام، لأن جلالته يحب البَرَّ، ويصرِّف الأمور كما كان مقيماً، لأنه متصل بكل أجزاء مملكته عن طريق اللاسلكي.

وراجع أخي الأكبر الأمير فيصلاً، فأشار عليه أن يبرق إلى الملك عبد العزيز باسم والدتي تستعطفه وترجوه العفو عني وإطلاق سراحي.

وجزى اللّه الأمير فيصلاً كل خير، فعندما قابله أخي محمد وأنا سجين بالفرن بمكة المكرمة وقال له مستشيراً: أنبرق لجلالة الملك، فأشار عليه بألا يبرق وألا يعلمه، لأنه يعرف شدة والده في مثل هذه الأمور، ووعد بأن ينظر هو نفسه في أمري، ووعد بإطلاق سراحي، وقد برَّ بوعده فأطلق سراحي.

---

(1) هذا الفصل كتبته بعد عودتي إلى مكة المكرمة وحصولي على المعلومات التي به، فهو في الكتابة كان آخر ما كتبته، ولهذا ختمت به الكتاب.

وعندما جاء الشيخ فوزان السابق قنصل المملكة السعودية في القاهرة إلى الرياض يقضي إجازته، وقابل الملك فسأله عن الأحوال والأخبار أخذ الشيخ فوزان يروي لجلالته ما لديه من الأخبار، وكانت العلاقات بين الملك فؤاد والملك عبد العزيز غير طبيعية، وكانت العلاقة بين مصر ومملكة ابن سعود سيئة، وكانت الصحف المصرية تتجنى على المملكة السعودية.

وقال الشيخ فوزان للملك: «كان بمصر شاب من الحجاز اسمه أحمد عطار من أفراد البعثة، وكان ينشر في صحف مصر بإمضاءات مستعارة نقداً للحكومة السعودية»، فغضب الملك عبد العزيز وابرق لمدير الأمن العام مهدي بك يأمره بأن يرحِّلني إلى الرياض مع «نجّاب» بعثه إليه هو مسفر بن جلاّن.

وهكذا كان نفيي إلى الرياض ثم سجني بالمصمك.

أما الإفرج عني أو العفو فإن أخي الأكبر حسن راجع الأمير فيصلاً نائب الملك في الحجاز فأشار عليه بأن يكتب برقية إلى العشيرة باسم جلالة الملك، وتكون البرقية باسم والدة أحمد عطار، تستعطف الملك وترجوه العفو عني، وأن تبعث برقية أخرى إلى سموّه ترجوه التوسط لدى جلالته لإطلاق سراح ابنها الذي ثبتت براءته بعد التحقيق الشديد من قِبَل مدير الأمن العام مهدي بك، ليكون لدى سموّه حجة في مراجعة والده.

وأبرق أخي حسن البرقيتين كما أشار الأمير فيصل،

وأخبر الشيخ محمد سرور الصبان بأمرهما كما أخبر الشيخ عبد اللَّه بن حسن آل الشيخ الذي يشهد لي ويزكيني ويحبني، فقد كنت زميل أكبر أولاده الشيخ محمد والشيخ عبد العزيز في الدراسة، كما كنت تلميذ الشيخ نفسه، فوعد بمراجعة الملك في أمري.

ويشاء اللَّه بفضله أن يهيئ كل الظروف والأسباب لنجاح المسعى، فقد كان الشيخ عبد اللَّه بن حسن والشيخ محمد سرور الصبان ومهدي بك والأمير فيصل بالعشيرة، وكان رئيس الديوان الملكي الشيخ عبد اللَّه بن عثمان صديقاً للشيخ محمد سرور الصبان وأوصاه بتقديم برقية والدتي إلى الملك عندما يكون الأمير فيصل والشيخ ابن حسن ومهدي بك في مجلس جلالة الملك.

وفعلاً، قدم الشيخ ابن عثمان البرقية إلى جلالته فنادى الملك مدير الأمن العام وسأله عن قضيتي، فأجابه: بأنه حقق معي تحقيقاً شديداً، وداهم منزلي ليلاً وبغتة وفتشه تفتيشاً دقيقاً، فبرأني التحقيق من التُّهَم الموجَّهة إلي.

وسأله عن عمري فقال مهدي: ولد صغير، عمره 17 أو 18 سنة، وكان الشيخ عبد اللَّه بن حسين رئيس القضاة بالحجاز جالساً على يمين الملك وسمع مقال مهدي فقال للملك: «يا طويل العمر، إنني أعرف أحمد عطار، وهو زميل أولادي في المدرسة، وشاب طيب وسلفي ومخلص، والأمير فيصل يعرفه، وطبع له على نفقته كتاباً ألّفه».

ونادى الملك ابنه فيصلاً فأقبل إليه فسأله عني فشهد لي سموّه، وقال: «إن مهدي قد حقق معه بكل دقة وشدة وظهرت براءته، وأنا أعرفه منذ كان طالباً بالمعهد العلمي السعودي موالياً مخلصاً فلما تأكدتُ من براءته أطلقت سراحه».

وقال سموّه: «إن والدته أبرقت إليّ تعلمني أنها أبرقت إلى جلالتكم تستعطفكم وترجوكم العفو عن ابنها وإطلاق سراحه، والأمر لله ثم لكم».

وأصدر جلالة الملك عبد العزيز أمره الملكي بالعفو عني عفواً عاماً، وأبلغ مهدي بك مدير الأمن العام بذلك، ولأمر ما أراده اللَّه نسي الملك أن يقرن العفو بالإفراج عني، فاستأذن مهدي بك من جلالته أن يبرق بنبأ العفو لابن عطيشان مدير شرطة الرياض، فأذِن له جلالته.

وأمر الأمير فيصل قسم البرقيات بقبول برقية مهدي لابن عطيشان وإبراقها فوراً.

وتلقّى ابن عطيشان برقية مهدي بك الصادرة من العشيرة من محطة اللاسلكي المرافقة لجلالة الملك. فأبلغني ابن عطيشان نبأ العفو، ولم يرد نبأ إطلاق سراحي إذ نسي الملك فبقيت في السجن بضعة أسابيع وأياماً مجموعها أكثر من شهر.

وعلى أي حال أدركني لطف اللّه، فصبر أمثالي من الناس غير صبر الأنبياء على رسولنا وعليهم صلوات اللَّه

وسلامه فلبثت بضعة أسابيع في السجن بعد صدور أمر العفو عني أزيد من الشهور الستة، أما سيدنا يوسف عليه السلام فقد حكى اللّه قصته في السجن إذ قال: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42].

فالحمد لله الذي لطف بي فلم يكن لي بسيدنا يوسف أسوة فألبث في السجن بضع سنين، وإنما لطف اللّه فلبثت بضعة أسابيع.

والفضل في العفو عني وإطلاق سراحي لله ثم للأمير فيصل الذي لا أنسى فضله هذا وغير هذا ما حييت.



الفهرس